همس الماضى

دار فريست للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الكتاب : همس الماضى

تأليف : محمد عبدالحميد على

مصمم الغلاف : عمار جمال العبد

إخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٣٩٤٠ / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي : 9 - 4 - 85676 - 977 - 978

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينة في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

التليفون : ٠١٠٠٨٠٧٥٦٥١

Email: First.Publishing.house@gmail.com

همس الماضى

رواية

محمد عبدالحميد على

الإهداء

إلى أستاذ فاضل علمنا حب العلم ومدى الفارق الذى يحدثه فى العقل والسلوك أدعو الله أن يتغمده برحمته.

ثم إلى زوجتى التى دائما ما تدعو لى عن ظهر الغيب أن يحقق الله لى ما أصبو إليه.

ثم إلى أصدقائى فى العمل الذين يتركوننى أكتب ويخلدون إلى النوم فى حالة إزعاج الضوء لأعينهم من أجل أن أنجز ما أريد كتابته.

وأخيرا، وليس آخرا، أهدى هذا العمل إلى أمى، بل وأهديها حياتى كلها، وأدعو الله أن يُمتعها بالصحة والعافية.

***

المُقدمة

قد نرى فى حياتنا العِبر والدروس، ولكننا أحيانا لانتعلم ولا نعتبر، ومنا من يضرب بما يتوجب فعله عرض الحائط، وينساق خلف الأهواء لأن فيما تهواه النفس سهولة ويسر، أما الواجب ففيه جهد وعناء، وقد يستغرق وقتا طويلا، ومن رغب فى السعادة السهلة لا يتعجب إذا قصُرت مدتها، فالسعادة السهلة التى تُجلب لك بيد الآخرين مثل البيت الذى يعلو بلا قواعد يركتز عليها وسرعان ما يهوىِ متساويًا بالأرض، نحتاج لأن ننظر لمن حولنا لنكمل نواقصنا منهم بعمل وكد ويقين بتحقيق ذلك، إذا ما أخذنا أسباب الوصول فى إكمال نواقصنا، وإشباع لذة الشعور بالنصر، ثم نتعلم ونُعلم أنفسنا كيفية الرقى بها والوصول إلى أعلى درجات الرضا ونكرانها لكل جميل أو معروف تصنعه لغيرها.

***

-١-

فى غمـرة الشـقاء والبـلاء يتولـد الأمـل والسـعادة، ومـن ظن امتـداد الضيـق حتـى يصـل بالنفس مـداه، فينفـرج وتتفتـح آفاق جديـدة لم تكـن فى الحُسـبان، ومـن حيـاة كانـت مسـتقرة يملؤها السـرور تتحـول لاختلاجـات وآهـات وعَـبرات، والانشـغال بـماضى شـابته أحـداث يتحمـل تبِعاتهـا مـن ليـس له يـد فيها.

هـام عـلى وجهـه لا يلـوى عـلى شـىء، عَبراتـه تسـبق آهاتـه، متهدجًـا فى نشـيج قطعـه تسـمعه لصوت قـدم أحد المـارة، مازال رصيـف محطـة القطـار خاليا مـن المسـافرين والعائديـن، وموعد القطـار القـادم المتبقـى مـازال طويـلا، لم يجلـب معه حقيبة سـفر ولا متعلقـات تعينـه عـلى الحيـاة، حـدث نفسـه بـأن كان يجب أن يـتروى ويجلب معـه بعض الملابـس والملابس الداخليـة، هدأ من روعـه وجفـف دموعه، قال لنفسـه: إنـه لايوجد أحـد يعلم أننى قـررت السـفر، نفـذ إلى داخلـه التراجع عن هـذا القـرار المُتسرع، فـلا يعـرف أحد أنـه قد علم مـا علم، طفق يسـائل نفسـه: لمَ كان يعاملـه كـما يُعامـل أخويـه؟ لمَ لم يشعره بـأى شـىء؟ ولمَ ارتـضى

لنفسه أن... هل تتغير نظرته لمن حوله؟ إنه يتقلب على نار الحيرة، أيبكى على ما ليس له فيه ذنب؟ أم يظل يكمل حياته متناسيا ما سمعه، مستمتعًا بما ظل متمتعا به منذ صغره من معيشة رغدة وحياة كريمة إذا ما قارن نفسه بالكثيرين من زملاء الدراسة الذين كانوا يتقلبون بين العوز والحاجة والفقر والعمل فى فترات ما بعد الدراسة أو العمل فى عطلات الأسبوع لتوفير احتياجاتهم المعيشية والدراسية.

استدعى الهدوء وبات يدرس وجه والده فى تصرفاته وحركاته وسكناته، لديه شعور مركب وساءل نفسهُ: هل يحتقره أم يحترمه ويقدره بل ويحُبه من أعماق أعماقه؟!، كان قد انتهى من دراسته، وعمل فى مكتب مُحاسبة، وعندما ذهب ليعرف موقفه من التجنيد، كان موقفه «لم يُصبه الدور»، وحصل على إعفاء من أداء الخدمة العسكرية.

جلس ممتقع الوجه، على غير عادته؛ لم يُلح فى تعجل العشاء،

سألته أمه عما يشغله ويُهمه، تحدى شحنات الريبة والتوجس والبُغض المؤقت حتى حين، وطفق يقبل يدها ويقول لها: لاشىء، قال لها: بعض الإرهاق نتيجة ضغط العمل.

كان له من هدوء الأعصاب والتحكم فى ذاته ما جعله يوازن بين حياته ومُستقبله، وبين التهور والاندفاع الذى

كان سيُكلفه فقدان ما سبق له من حياة بناها بمحض القدر وظروف سبقت لا يعلم كنهها إلا الله، وربى الأسرة التى نبت وترعرع فى ظلها، أسرة مستقرة مترابطة لا يشوبها شائبة، ومستقبل بدأ يبسط له راحة الأمن الوظيفى، والضمان المالى لمستقبله.

أخوه الأصغر كان يصغُره بعام، لم يوفق فى التعليم العالى وحصل على مؤهل فوق المتوسط، كان بيتهم صغيرا ولكنه كان مِلكا لوالده، يقطنون فى الدور الأول. أما الدور الأرضى كان مُستغلا ومقسما إلى «دكاكين» كانت تُدر لهم دخلا شهريا معقولا، ومعيشتهم كانت فى الدور الأول، أما الدور الثانى فبه «شقة» كان والد - مجدى - سيعدها له ليتزوج فيها، وهذا ما أثار حفيظة مجدى من نفسه، كيف له أن يفكر فى بُغض هذا الرجل مهما كانت فداحة ما سمع من حوار، كان يكاد أن يهد كل شىء، يحاولون هم أن يظل قائما، كان عليه أن يتعايش على أنه لا يعلم شيئا، ولم يسمع شيئا، فلن يستفيد من شىء، بل سيخسر كُل شىء، فى نفسه ليس وصولية ولا طمع، فوالده إرثه الذى سيُخلفه بسيط، ودخله الشهرى لا يستحق، فليس بالقدر الذى قد يُطمع فيه، ولكن إيمانا منه بواجب يقتضيه الوفاء إيحاء بداخله، أن يظل بجوار هذا الرجل الذى رباه وكبره، وأن يكون عونا له وقد هربت منه صحته وشاب شعره وانحنى ظهره، وقد انقضى عمر ولم يسىء له بالرغم مما سمع من حوارهما بمحض الصدفة وعن غير تجسس.

تلفنت عليه سهام، كان اسمها على الوارد بشاشة الهاتف، لم يسمع الرنين وقد أعمل الهاتف صامتا، لم يعاود الاتصال بها عندما رأى المحادثة الفائتة، عاودت هى الاتصال، ولم يجب، انتهى الرنين وحول الهاتف إلى الصامت مرة أخرى، أول مرة يتخلف عن الرد على محادثة لها وهو متعمد، ثمة طارىء داخله ينازعه حال بينه وبين التواصل معها، قد يكون مدفوعا من اللاوعى، من المفترض عليه أن يُعيد حسابات ارتباطه بسهام، يجب أن تعلم عنه كل شىء، وهذا سيترتب عليه هدم البناء الشامخ الذى مكث والده فيه يعتنى به ويحيا على تقويمه بعناية.

عزم على أن يفك ارتباطه بها بالرغم من الحُب الذى يجمع بينهما على مدار عامين من بداية تعارفهما حتى الخطبة، بات جليا أن أصبح فى نظر نفسه معيوبا، مثل سلعة لدى تاجر لا يتردد أن يعرضها للبيع مقابل نصف ثمنها الأصلى، على أن يعرف المشترى عيبها، سمع هاتف والده يكرر الرنين، شك أن تكون هى التى تطلب والده، شَعُر أن قلقها عليه قد استبد بها، خرج مجدى مسرعا حتى يكون والده صادقا عندما يخبرها أنه خرج، وبالفعل قد سألت عليه سهام وشكته لوالده بسبب انقطاعه المفاجىء فى الاتصال بها أو أن يقوم بزيارتها كما كان يفعل، لم يجد والده ردًّا شافيا يُهدىء من روعها، والشكوك التى باتت تراوحها، ولما تهرب منها للمرة الخامسة وأصبح تجاهل الرد على اتصالها عادةً ضاق بها واحتارت فى هذا

الغمـوض الـذى جعـل علاقتهـما معـا عـلى المحـك، ولمـا جاءت لتضـع حـدًّا لتهربـه وأيقنـت أنـه علـم بقدومهـا اختفـى فجـأة، وقـد أخبرتهـا أمـه أنـه منـذ دقائـق كان يكتـب عـلى الحاسـوب، تركـت لـه خاتـم الخطبـة وكتبـت لـه ورقـة مضمونها: «سـأوفر عليـك تعـب ومشـقة الهـروب منـى، أتمنـى لك السـعادة».

خرجـت ووجنتاهـا تلمعـان مـن أثـر الدمـوع التـى هطلـت مـدرارا، حاولـت أمه اسـترضاءها ولكنهـا ذهبـت غاضبة تحمل بـين طياتهـا مشـاعر متباينـة مابـين الحُـب والعتـاب والنـدم عـلى التخـلى عنـه حفاظًا عـلى كرامتهـا، وحـل الارتباط الذى سـيأتى مـن ناحيتهـا، لم تتمهـل حتـى تحـل وتستكشـف هـذا الغمـوض الـذى طرأ عـلى علاقتهـما التـى كانت تخطـو نحو الـزواج بخطى سريعـة، ركبت جـواد الغُبن والتعجـل ولم تترو حتى يأتى بنفسـه ليبـوح لهـا بكل شـىء.

لا تعلـم سـهام أنـه الآن يمـر بمرحلـة لم تكـن فى حسـاباته البتـة، لا تعلـم أنـه فى تلـك اللحظة الراهنة مسـتلب الشـخصية، مسـتلب الإرادة، يشـعر باللاشـىء، واللاوجود، كان يسـمع عن التيـه ولا يفهـم مغـزاه، والآن هـو فى تيـهٍ دائـمٍ.

يُسـائل نفسـه عـن علاقة والـده بأمه: هـل حُبه لهـا قد تمخض عنـه صفحًـا وغُفرانًـا؟ فتحولـت إلى العِفـة والطهـارة حتـى أنها كانـت تواظـب على صـلاة الفجـر كل يـوم، زوجها الـذى عرفته منـذ صغـرى أنـه أبـى كان يصـلى فى الزاويـة القريبـة مـن المنزل، وهـى تصـلى فى البيـت، يعـود ليجـد كل شـىء مُعـدا مـن إفطـار

وشـاى وملابـس العمـل والحـذاء مورنـش ومُلمعـا ورائحـة الورنيـش تعـج فى المكان، كان حريصـا عـلى ألا يعـرِف أحـد أنه قـد عـرف كل شـىء، أن شـعوره بالضعف وسـط هـذا العنفوان الـذى يعيشـه يهدمه مـن الداخل، ثمـة احتراب داخلـه بين ماضٍ هـو عليـه حانـق ولا يملك فيما حـدث فيه منـه شـيئا، إلا أنه جاء وولـد فى هـذا المـاضى، وبـين بـوادر مصالحـه مـع الأيـام القادمة يدمـج فيهـا ألم المـاضى وتعايـش الحـاضر لأنـه جـزء مـن الاثنين معًـا، عـاد يُسـائل نفسـه: مـا الدافـع أن يظَـل والـده الـذى ربـاه صغـيرًا رجـلا سـويا والد شِـبه فاضـل بل هـو حقًا فاضـل، وقد علـم عـن زوجتـه ماقـد علم حتـى أنهـا وصلـت لـل... والثمر، والتـى أنتجتـه دخيـلا مفروضا على غريـب أن يتولاه منـذ أن كان قِطعـة لحـم حتى هـذا الوقت الـذى ينصب لـه فى داخلـه محكمة، فى هالـة خياله الشـارد.

دخـل عليـه أخـوه ماجـد يطلُـب منـه قميصـه الجديـد فلديه مقابلـة فى وظيفـة بأحـد الـشركات، وقـد وصـل لمراحـل يـأس التوظيـف، عـلى غـير عادتـه لم يناقـش أو يجـادل أو يرفض رفض غيـظ واسـتفزاز كـما جـرت العـادة بينهـما، وبعـد ذلـك يعطيه ما يريـد، بـل نهـض وجمع له عـدة قُمصـان وغيـارات شـبه جديدة، ممـا جعـل ماجـدا يصـل بـه التعجب مـداه.

أخذهـم ماجـد وغـاب عنـه سريعـا قبـل أن يعـود فى عطيتـه الكريمـة غـير المعتـادة، كانـا أخويـن محبـين لبعضهـما، وكانـت أختهـم فاطمـة الصُغـرى مكملـة لثالوثهـم، لم يغـب عنهـم

احترامهم لبعضهم البعض، كانت فاطمة تدرس فلسفة بكلية الآداب.

رأت الأم خاتم الخطبة مرفقا بورقة مكتوب فيها ما فاض عن كبتها ولم يتحمله قلبها، أخذت الخاتم والورقة وأعطتهم لزوجها سيد، وطلبت منه أن يذهب إلى سماح ويسترضيها، ذهب إليها وأخبرها أنه لن يُخبر مجدى بما فعلت وسيتولى هو التفاهم مع مجدى، ويستوضح منه عن سبب انقطاع زيارته لها والتقصير فى الاتصال بها.

ولما تصادف وجود مجدى ووالده فى البيت سأله عن سبب خلافه مع سماح، أطرق مجدى وقال فى حزن، أنه لن يستطيع أن يكمل حياته مع سماح.

سأله والده: ماذا حدث؟

قال: لقد أكتشفت أنى لاً احبها، وأخشى ألا أستطيع إسعادها فى المُستقبل.

قال والده:

- لا تتعجل وامنح نفسك فترة تفكير، وحاسب ضميرك ليخبرك أنك مرتبط بها منذ عامين كخطيبة لك، فلمَ تتركها للقيل والقال، اتقِ الله فيها؛ فلكً اخت، هل ترتضى أن يتركها خطيبها بعد عامين من خطبتها؟!

بعد حديث والده قال:

- سأترك لنفسى فرصة للمراجعة واتخاذ القرار.

خاطب والده فى نفسه مستجوبا إياه: ولمَ قصرت فى حماية زوجتك حتى...؟

وعندما يجلس وتجمعهم مائدة العشاء كان ينظر إلى أمه على أنها عاهر قديم ويحول نظره إلى والده وينعته فى داخله بالديوث الذى ارتضى أن يستمر حمل زوجته من غيره ويعلم بذلك، ويتولى تربيته، ثم يشعر مجدى برأسه تكاد تنفطر من فرط التفكير، يلجأ إلى تناول حبوب الأسبرين ويتجرعها بالماء.

***

-٢-

أراد أن يذهب بعيدا عن الجميع؛ يريد أن يرى وجوها جديدة، يريد أن يرى نفسه فى عيون عالم آخر لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئا، العاملين والمكتب والحاسوب، تمرد على منير صاحب مكتب المحاسبة التى يعمل بها، فبعد أن كان نشيطا ودقيقا، وكله أمل وطموح فى أن يتقدم نحو الأفضل فى كل شىء، تحول إلى متكاسل فى عمله، يهيم على وجهه حائما حول اللاهدف، زاد فى تدخين السجائر، وبدأ يشرب البيرة ويستحلها كدواء مدر للبول، يبرر أمام نفسه ما ترفضه قناعته، فقد كان دائما ما يكره أى شىء يُذهب العقل وكان لا يحبذ أن يختلط بالدم، ولكنه ناقض قناعته وتجرع «كنزات البيرة»، واحدة تلو الأخرى حتى اعتادها، أهمل لحيته ونبتت دون تشذيب وبإهمال واضح، يئس والده أن يعرف أسباب ما وصل إليه وألمّ به!

كان والده نقطة الوصل بينه وبين سماح دون أن يعلم هو، كان والده حريصا على ألا يُقطع حبل الود بينه وبين سهام على

آمـل أن يعـود لسـابق عهـده إنسـانا سـويا، داخلَ سـهام شـعور مركـب بالغبطـة لأن مجـدى يمر بأزمـة نفسـية، ووارد أن يتعرض لهـا أى إنسـان، ولم يهجرهـا مـن كامـل وجدانـه وقلبـه وحضوره الذهنـى، وتألمـت لما هو فيـه وتخشـى أن تذهب إليه وهـو فى تلك الحالـة فتفقـده، هى واثقة أنه يريـد أن يتملص من هـذا الارتباط، ومـا قصـه لها والده عـن ظروفه الراهنـة توجب عليهـا أن تلتمس لـه الأعـذار حتـى يهـدأ ويسـتقر ويعـود إلى حالتـه الأولى، فى صبـاح يـوم الجمعـة سـافر وأعلمهم أنه سـيقضى بعـض الأيام فى المصيـف، كان حـر القيـظ شـديدا، وهـو بمثابة قرار عـادى وغير خـارج عـن المألـوف، عـرض عليـه والـده مـالا ولكنـه رفـض، وتعلـل بكثـرة المـال معه، جمع ملابسـه داخـل حقيبة سـفر كبيرة، وضـع فيها أغلب ملابسـه، ممـا أثار فضـول والدته أن تسـأله عن حملـه لكل ملابسـه معـه، فقال: قـد تطول الفـترة التى سـأقضيها فى المصيـف، رمـق أختـه فاطمـة والدمـوع تهطـل مـن عينيهـا وصـوت بكائهـا ارتفـع بتهـدج، ممـا دفعـه إلى أن ذهـب صوبهـا فمسـح عـلى رأسـها وقبـل جبينهـا، قال لهـا إنه لـن يغيـب كثيرا، أكـد أنـه سـيعود، ووعدها بالاتصـال اليومى، والـده فى حيرة من أمـره، لم يذكـر أن قـال له شـيئا أو أسـاء إليـه فى شـىء، كان والده قـد أرسـل لسـهام لـتراه قبـل أن يسـافر، ولكـن طلـب منهـا أن تتـوارى ولا تسـمح لـه أن يراهـا، احترازًا مـن رد فعـل مضاد قد يُغضبهـا، هـى من النـوع الحسـاس ولولا تدخـل والده لما بقيت علاقتهـما معلقـة حتـى الآن. أقنـع ماجـد والـده أن يسـافر معـه، وافـق الوالـد، ولكـن مجدى رفـض، هو مُـصِر أن يسـافر بمفرده.

علـى أعتـاب البيـت شـعر أنه حمـل عـلى عاتقـه كل الذكريات معـه، كل المواقـف الجميلـة التـى أبكتـه من فـرط السـعاده، وكل مناسـبة سـعيدة مـرت سـيظل صداهـا يـتردد، يفـارق البيـت وينتـوى عدم الرجوع، سـيضع نفسـه فى اختبار أن كان سـيتحمل هـذا الفـراق المُسـتمر أم سـيأخذه الحنـين ويجبره على العـودة أن آجـلًا أو عاجـلًا؟ يسـائل نفسـه: هـل يسـتطيع أن يبنـى حيـاة لنفسـه وهـو لا يجـد مـآوى، ومدخراتـه فى البنك لا تتحمـل نفقة المـكان ومصاريـف الـزواج.

فى القطـار اسـترجع شريط حياته منـذ كان طفـلًا، تذكرعندما كانـوا يذهبـون للتسـوق قبـل دخـول المـدارس، كان والـده يهتم به ويشـترى لـه الملابـس غالية الثمـن، عندمـا كانـت تفاصل أمه وتختـار الأرخـص كان والـده يـصر عـلى شراء الأغـلى والأجود، كان يشـعر بالغبطـة ووالـده يلبسـه الثيـاب بنفسـه داخـل «البوتيـك»، ويتأكـد أن الملابـس لائقـة عليـه، لم يتذكـر يومـا أن والـده بخِل عليـه بمصروف أو أى شـىء يخص النواحـى المادية، حتـى أن والـده عندمـا سـوَّى معاشـه وتقاعـد منحه مبلغـا كبيرا مـن مكافئـة نهايـة الخدمـة، ليعينـه عـلى مجابهـة نفقـات الـزواج، دائـما مـا كان يشـعر أن والـده يحبـه أكثـر مـن أخيـه وأختـه، أمـه كانـت تعامـل أخيـه وأختـه بتمييـز ملحـوظ عنـه، كان يتناسـى ذلـك ويدلـل لنفسـه انهم احـق بالتمييـز عنـه لصِغر سـنهم عنه. تذكـر أختـه التى تحبـه، ودائما ما تطلـب منه حلولا لكل مشـاكلها الدراسـية والعلميـة وقتـما كانـت فى التعليـم العام كالمسائل التى

تستعصى عليها والمُبهمة فى الرياضيات والفيزياء، وكانت تحكى له كل شى يحدث معها، أما ماجد فقد كان ينظر إليه كخير معين له ماديا وقت الحاجة، وكان يكمل به نقص قوته التى أضعفها مرضه الحرج فى الكلية.

وجد نفسه لا يُعانى من الازدواجية البتة، وكان من المفترض أن تفرض نفسها عنوة، إلا أن الوالد كان يحتوى الجميع وكان يهتم بالجميع بمعيار واحد.

وجد مجدى نفسه عندما عايش مامضى بميزان العدل والإنصاف فى تلك اللحظات التى كان يحاسب فيها نفسه ويؤنب ذاته المتمردة ليس تمردا بطرا أو كبرياء، إنما تمرد ناتج عن صدمة على غير توقع أو حسبان، ما زال يجابه أثر توابعها النفسية بشتى الطرق. فى هالة الشرود التى هو عليها، انتبه إلى صوت القطار يزمجر والأضواء مضاءة ورُكاب القطار صامتون لا يتكلمون، تُرى هل وقار الليل أستبد بهم؟ أم أن الجميع فى هالة شرود وكأنهم على موعد مع الصمت، وصراعات مع النفس، كما هو لسان حاله، أم إعياء من متاعب السفر، أو إغفاءات هروب من الشعور اللهوف بترقب الوقت بشغف الذى يسبق لحظات الوصول المرتقبة التى تناهز ضجر لحظات الانتظار المؤرقة.

جاءت سهام على خاطره، كما جاءت أسرته، من فرط حُبه لها، أراد لها الخير الذى قد لا تجده معه، لقد نظر من عين المستقبل إلى أن يبنى فرضيات أحداثه على معطيات حاضره،

وأن أيامه القادمة لاتُبشر بخير، هو لن يخسر كثيرًا إذا ماعلم أحد من أخوته، فهو لن يزاحمهم فى ميراث يستحق التناحر، بل هو فى وظيفة وإن كان سيتركها فقد اكتسب الخبرة التى تُمكنه من العمل فى أى شركة كمحاسب خبير بشتى ثغرات المهنة .

ثمة أسئلة كان يريد يسألها لوالده، لابد من الإيضاحات التى يحتاج إلى تأويل طلاسمها، الآن خمن سر اهتمام والده به من صغره، كان فيه مجاملة مستدامة لزوجته التى يبدو أنها كانت مغلوبة على أمرها، ولم يكن بها أدنى رضا من قِبلها عندما حدث ما حدث، وكذلك الحال كانت ترد هى على مجاملته المسكِنة لآلامها تلك بأن كانت تظهر جم الحب والاهتمام أمامه للصغيرين من دونه، مما كان يثير حفيظته فى بعض الأحيان فيلفت انتباهها ألا تُفرق بين الأبناء.

نزل فى محطة القطار، تغازل عيناه إضاءات لوحات الإعلانات والدكاكين، لم يستطع أن يكمل السير، شعر بالجوع والدوار، حقيبته كانت مكتظة بمتعلقاته، جمع فيها كل ملابسه وأشياءه، حتى الروايات، وأسطوانات الأغانى القديمة التى يعشقها، ويحمل نفس تلك الأغانى على فلاشة، ولكن الأسطوانات لها ذكريات لاتُنسى بالنسبة له.

عزم على البحث عن «بنسيون» رخيص، كانت عذابات الآتى تجثم على قلبه، أصبح الآن بلا مأوى، ومطالب أن يتحمل نفقات ثلاث وجبات كان فى الماضى يجدها مُعدة

وسـاخنة ومصحوبة بابتسـامات الرضاء مـن الأم والأب، اهتدى إلى «بنسـيون» يملكـه رجل خمسـينى، وهو عبارة عن بيـت متداعٍ مكـون مـن طابقين، فـرح أيما فرح عندما عثر على سـكن مناسـبٍ لا يسـتنزف مالـه حتى يـرى إلى أى الخيارات سـيؤول المُسـتقبل، فقـد حفيـت قدمـاه حتى وجـد مثل هـذا المبيـت وبإيجـار مُعتدل إذا مـا قـورن بغـيره، مكـث فى غُرفتـه فى أوقـات محاسـبة عصيبة، نظـر إلى القـادم بعـين العقـل والمصلحـة، ظـل هكذا يحكِـم عقله فى كل شـىء، فكـر فى العمـل. هـو مـازال الآن يُمكنـه العـودة، صاحـب المكتب يثـق بهِ ووصـل معه لمكانـة مهمة بـين العاملين، وتـدرج حتـى أن الأعـمال المهمـة تُسـند لـه هـو، عندمـا فكـر فى أخوتـه أخـذه لهيب الشـوق إليهـم، فاطمـةا ماجد. والـداه مازالا فى طـور عـدم الاشـتياق ممـا جعلـه يهـرب مـن التفكير ليعـود إلى الواقـع ليجـد نفسـه عاطلا. سـيبدأ رحلـة البحث عـن عمل وقد يجـده فى مجالـه، وقـد تضطـره الحاجـة والملـل إلى أن يقبـل بعمـل حقـير بالنسـبة لعمله السـابق.

هـل تتهـاوى فكـرة الهجـر الدائـم والابتعـاد؟ هل يُعد نفسـه لأن يذهـب بـما غـادر البيت مـن أجلـه أدراج الريـح، أن يتصالح مـع نفسـه ويعيـش عنـد النقطـة التى سـبقت سـماعه ما قد سـمع مـن حديـث أمـه ووالـده الـذى جلـب لـه الشـتات الذهنـى والمعنـوى، وجعلـه يسـعى فى المُدن باحثًـا عن شـئ مـا لا يعرف ما هيته .

تناول الأفطار فى المطعم بالدور الأرضى، كان «البنسيون» قريبا من البحر ولكنه آثر أن يتجول فى شوارع الإسكندرية، استقل تاكسيا واستقبله السائق بابتسامة ترحاب، طلب من السائق أن يدور به فى الشوارع ثم يعيده لنفس المكان الذى انطلق منه، كان يسكن فى «بنسيون» بشارع عبدالحميد رضوان، تجول وتخلل أغلب الشوارع، وصل لشارع الهانوفيل ومر بشارع همام ثم عاد وانعطف فمرق بالعامرية وظل يدور به وكأنه يتلذذ بمشقة التطلع إلى الشوارع وواجهات المحلات وعمر أفندى، التطور والتحديثات ظاهرا، نزل وترجل حتى وصل لمقهى، تناول كوب شاى واشعل بعض السجائر، وتسمع لحديث رواد المقهى، حديث متكرر: الأسعار، الخبز، التعليم، البلطجة، والرشوة، نفس حديث الإسكندرية، هو نفس حديث القاهرة الهم واحد والمشاكل مشتركة.

وصل إلى الشاطىء كان يرتدى زيا خفيفا، ترك متعلقاته فى كيس وطلب من أحد الجالسين حراستها حتى يعود، اختار جانبا شبه خالٍ من الناس وألقى بنفسه فى حُضن المياه التى استقبلته بالغمر فى باطنها، ورد عليها بالسباحة والطفو، ظل يسبح ويغطس ويطفو حتى بلغ من الإنهاك مبتغاه، خرج عائدا للبنسيون.

أخذ حماما ثم تناول الغداء وقبل أن يقرر العودة إلى الشاطىء مرة أخرى تلفن لأخيه ماجد، كان يقصد أن يزيل هوس عدم اللاعودة من داخلهم ليُظهر لهم أن عودته محتملة وقد تكون

قريبـة، لقـد قـرر ألا يلـج واحـة المجهـول، أن يبـدأ حيـاة جديدة أساسـها مسـتمد مـن الحيـاة القديمـة التـى يريـد أن يتنكـر منهـا، أسـلوباً تعليـماً جسـدا قويـا. أينـما ذهـب سـيظل المـاضى ملازمه وجـزءًا منـه. عمـت الفرحـة البيـت وردت الـروح لأمـه، فقـد كانـت تستشـعر أن وداعـه لهـم كان وداع هجـر وبلاعودة.

عـاد ليكمـل سـباحة فى الأبيـض المتوسـط، يغالـب الهمـوم والآلام بتفريـغ طاقتـه وغضبـه فى السـباحة والغـوص والطفـو عـلى صفحـة البحـر الهائـج.

ذهب للتسـوق، شـعر أنه جـاء للمصيـف والتنـزه والترويح، انطلـق فى الليـل يجـوب الشـوارع، يراقـب النـاس عـن كثـب، يسـتقرىء ملامحهـم. الجميـع ليـس عـلى حـال واحـد، التبايـن واضـح، مابـين وجـه تتراقـص البسـمة عـلى ثغـره، وآخر شـارد الذهـن لا يسـمع حديـث مـن يلاصقـه فى المقعـداً ووجـه حزيناً، كلهـا مشـاعر مرتبطـة ومتشـابكة فى سلسـلة واحـدةًلـولا الحزن مـا عرفنـا قيمـة السـعادة، ولـولا السـعادة مـا كرهنـا لحظـات الحـزن التـى تفرقنـا عنهـا، ومـا حاولنـا التخلـص منـه بشـتى الطـرق لنرجـع للسـعادة مـرة أخـرى.

تذكـر أخـاه ماجد وهـو فى «المول» فابتـاع له قميصـا وجاكت للشـتاء، وابتـاع لفاطمـة حقيبـة يـد وحـذاء جميـلا، ولمـا جـاءت صـورة سـهام عـلى خاطـره شـعر بتأنيـب لذاتـه عـلى أنـه أهـان مشـاعرها أكثـر مـن مـرة، ابتـاع لهـا خاتـم ذهـب واختـار لها من ذوقـه بعنايـة، وتمنـى أن تسـامحه عـلى مـا فـرط فى حقهـا كخطيبة

وتذكر ودها الذى حاول قطعة تحت تأثير حالة التمرد والعصيان التى كانت تكتنفه.

حمد الله لأنه لم أنه يفرط فى الشقة التى كانت مخصصة له، وكان قد عزم أنه سيتركها لماجد، إيمانا منه أن ماجدا أحق بها منه، ولكنه الآن تخاذل ولن يتحدث حال عودته فى ذلك، بل سيبدأ فى التجهيز والتشطيب حتى يتزوج هو وسهام فى الموعد الذى كانا متفقين عليه، لقد اكتسى بدثار جديد، دثار التناسى من أجل الحياة التى قد يشعر المرء فيها باللا حياة، ولكن محتم عيشها بفرحها وحزنها وبسترها وعوزها، لا انتقاء، بل يجب الرضا بأى حال. وكان قد قرر فى قرارة نفسه أنه سيعين ماجدا فى مقدم الشقة التى سيتزوج بها. استبعد أن يشارك والديه الشقة فقد لا ترضى زوجته بذلك.

بعد أن عاد مجدى لما كان عليه قبل سماعه الحديث بين والديه، عاد إلى عاداته القديمة يسمع أغانى محرم وفريد وعبدالحليم وكوكب الشرق، كان يكره الأغانى الحديثة ويقول إنها تحاكى الجسد، أما الأغانى القديمة فتحاكى الروح، تذكر والده، لم يذكره فى نفسه إلا بصفته التى شب على قولها، فهو والده الذى لم ترى عيناه غيره، فهو الذى كان يعتنى به ويلبى له احتياجاته المادية، وإعانته له على حل مشاكله منذ نعومة أظافره، مرورًا بتدرجه فى السلم التعليمى حتى تخرجه، و فى النهاية ساعده فى الحصول على وظيفة فى القطاع الخاص.

بعـد انقضـاء عـشرة أيـام قـرر العـودة، انتهـى كل احـتراب داخلـه، تصالـح مـع الواقـع وخنـع لـه، استمد مـن خوفـه، من المجهـول قـوة فى مجابهـة الحـاضر الـذى قـد قـد اهتز منـه وعاش فيـه أوقـات تيه.

***

-٣-

عـاد للبيـت، وعـاد أكثـر مرحـا وًالفة مـن ذى قبـل، احتضن الجميـع بقلـب خافـق وأشـواق حـارة وعَـبرات هطلـت عنـوة، قالـت أمـه: كنـت أخشـى من عـدم رجوعـك، كنت قبل سـفرك بحالة سـيئة.

قـال: كنـت أمـر بمشـاكل وكثـرة تفكـير، وأشـياء تراكمـت فى خاطـرى فى آن واحـد، وعندمـا غـيرت الجـو والنظـام الـذى اعتـده ذابـت كل الرواسـب التـى كانـت تضجرنى، و كل شـىء كان يؤرقنـى ذهـب مـع ريـح الإسـكندرية وبحره، فرِحـت أخته فاطمـة أيـما فرحـة، همْـت لتذهـب إلى سـماح لتخبرهـا، ولكـن مجـدى اسـتوقفها وقـال: أفضـل أن أذهـب إليهـا بنفسـى.

أخـذ الوالـد رُكنـا قصيـا فى الصالـة واقتعـد الكرسـى ومـال برأسـه لأسـفل ووضعه بـين كفيه وطفقـت دموعه تنـزل بغزارة، رمقـه مجـدى بتلـك الحالـة فهـرع إليـه، لم يسـتطع مجـدى أن يحدد أسـباب تلـك الدمـوع أهى دمـوع فرحة أم دمـوع نـدم، أم دموع

حُـزن عـلى عذابـات قديمـة مترسـبة مركزهـا مجـدى نفسـه؟ ومصدرهـا الـذى يؤججها على الـدوام، وإن كان الوالد اسـتطاع التحكـم فى نفسـه كل ذلـك الوقـت الـذى مـضى، فهل سيسـتمر بتلـك القـوة والصلابة؟ أم سـيأتى وقـت وينفجر كقنبلـة موقوتة ليخـبره ويتخلـص مـن عـبء السـنين الجاثم فـوق صـدره، وقد يكـون جُل فكـره وانشـغاله.

وضـع يـده عـلى منكب والـده ثـم انحنى وأمسـك بيـد والده وقبلهـا، استسـمحه أن يتغـاضى عـن عصبيتـه ونزقـه الـذى بـدا منـه قبـل سـفره، طلبـت منـه أمـه أن يذهـب ليصالـح سـهام، وأومـأ لـه والـده أن يطيع أمـه، اسـتأذن للذهـاب إليهـا رضوخا لرغبـة الجميـع التى استشـعرها وقرأهـا على ملامحهـم ونظراتهم.

قابلتـه وكأنها تسـتقبل إنسـانا لأول مـرة، لم تُبدى فرحـة اللقاء المتوقعـة منهـا حياله، ولكنه التمـس لها العُذر وبـدأ هو فى تلطيف الجـو الملبـد والمشـحون بالغضـب والعتـاب والأسـئلة المتوقعـة منها، ولكنها لم تسـأله شـىء وشـخصت إليه بنظرها ثم قالت له:

- لـو لم تـرد أن نكمل معـا ؟!، أنت حـر من أى ارتبـاط لو أن هذا سـيجعلك سعيد.

ابتسم مجدى وأمسك يدها وقبلها، نظر إليها وقال:

- أنا وسهام لا تتدخلى بيننا.

ابتسـم وابتسـمت ثـم طلـب مـن أم سـهام أن تعـد لـه شـايا ثقيـلا، تثاقلـت فقـال لهـا:

- لا أقوم بتوزيعك لتخلى لنا المكان، لقد تعدينا ذلك بمراحل، أنا محتاج شايا حتى لو أعدته سهام.

نهضت أم سهام فأخرج من جيبه الخاتم وألبسه فى إصبع يدها سريعًا، ثم قال فى هسس: ولا كلمة.

أسكتها قبل أن تبدأ أسطوانة الوعظ والحث على تدبير المال لينفع فيما هو أهم.

عرض عليها تقديم موعد الزواج، ولكنها ارتبطت بالموعد القديم لعدم جاهزية والدها بكل التجهيزات قبل الوقت المحدد.

عادت المياه لمجاريها وكأن شيئا لم يكن من خِصام أو هجر وعادا كسابق عهدهما من حب متبادل وأحلام، وطموحات الغد تجمع قلبيهما ويسعيان إلى تحقيقها فى تحدٍّ عنيد حتى لو سيسبحان عكس التيار، لديهما يقين أنهما سيصلان لما يصبوان إليه. فى طريق عودته بعد أن ودع سهام راهن نفسه على شىء كان قد غازل أفكاره من قبل، ماذا لو عرض على والده أن يترك الشقة لأخيه ماجد ليرى رد فعل والده؟ ويستجلى ملامح وجهه ليقرأ منها ما يحدد نسبة الرغبة فيه من قبل والده، وما هى نتيجة المفاضلة التى قد تنتج، كثير من الأسئلة تحيط بمجدى يبحث لها عن اجابات.

فاجأ والده وقال: سأترك الشقة لماجد قال والده: وأنت؟!، قال: سوف أستأجر شقة. قال الوالد: هو من يستأجر شقة إن

رفضت عروسه التى لم يهتد إليها بعد أن تعيش معنا فى تلك الشقة الرحبة الفسيحة.

قال مجدى: أنا موظف وظروفى أفضل من ماجد.

قال الوالد: وماجد مازال أمامه وقت كافٍ سندبر أمره فلا تشغل بالك به ولا أريدك أن تفتح أمامى هذا الموضوع البتة، الشقة لك.

دارت رأس مجدى، هو لا يكاد يُصدق رزانة وصلابة هذا الرجل الذى يفضل ابن زوجته ال...على ابنه، أم أنه سمع حديثا مغلوطا من أحد غيره؟! إلا أنه كان فى كامل وعيه وهو يسمع ماقد سمع، إنه ليس بابنه، نعم سمع الحوار وسمع اسمه يلاك بينهما، وسمع بكاءها المتهدج وهو يسرى عنها ويخفف عنها وطأة الذكرى التى لا يعلم من الذى أثارها منهما، أم أنه يوجد طرف ثالث؟! وذلك بمثابة طامة وفاجعة بالنسبة له، كم كرِه مجدى ذلك الجبان الذى اختفى بعد صنيعه القذر الذى كان هو ثمرته، ثمرته التى ألقاها وهو لا يعلم أن فعلته تركت له أثرا، أثرا موصوما بالخزى والعار، بالرغم من أنه ليس له يد فى ذلك الخزى والعار إلا أن سيصبح كذلك بالنسبة للناس إذا ما علموا حقيقة الأمر، ولكن تلك هى رؤية المجتمع غير السوى، المجتمع الذى يأخذ الابن بذنب والده، والحيوان والجماد بذنب صاحبيهما، هو يثق أنهما لا يعلمان أنه علم بحقيقة أمره، ولكن يوجد شىء غريب لاحظه مجدى وهو أن ملامحه تحاكى وتشبه ملامح والده، وهذا جعل مجدى

فى حيرة من ذلك الأمر، قرر أن يبحث عن الحقيقة ولكن دون أن يشعر به أحد، فهذا أمر جلل فى عيون الناس وهو فى غنى لأن يكون عُرضة للقيل والقال فى مجتمع من الصعب عليه أن يغفر وينسى مثل تلك الأمور الخاصة بالشرف.

قرر مجدى أنه لن يُخبر سهاما بأى شىء، كما أنه سيتكتم أمره لأبعد مدى إلا إذا انكشف أمره من طرف ثالث، كان يسائل نفسه من يكن؟ وأين هو الآن؟ هو استقرأ المعطيات، وهى أن ماحدث كان عنوة أو اغتصابا أو أى شىء لم تكن لأمه رضا فيه سواء كان اغتصابا أو أعطاؤها منوما وحدث معها ما حدث، أو حدث تحت تهديد السلاح، ولكنه استبعد ذلك، فلو حدث ما حدث بالجبر لاستبدل والده البيت أو المكان بمكان آخر وبيت آخر، لتواريا من القيل والقال فلا يوجد دخان بلا نار.

استحال عليه أن يجرح أمه ويلمح لها عن شىء، والأمر أكثر حرجًا لوالده، فلا يقوى على ذلك حياله أيضًا، كلما هيأ نفسه للنسيان عاد إلى فى التفكير، وكأن شيئا داخله يثير تلك القلاقل التى تهيج أعصابه وتقلق منامه.

عاد إلى عمله بعد أن اعتذر لصاحب الشركة وقبل أسفه وتفهم ما كان يمر به من توتر.

ذات يوم كان يجلس، ولم يكن معه فى الصالون إلا أمه، سألها منذ كم سنة وهما يعيشان فى هذا البيت؟ قالت إنها تزوجت

فى هـذا البيـت. صمت مجـدى هنيهة ثـم قـال: أكان لوالدى بيت آخـر؟ قالـت، وقـد ظهـر عليهـا الارتبـاك،: كان لوالـدك بيت فى السـيدة وباعـه، قـال لها: سـكنتم فيه؟ قالـت: لا، لا.

هـل تتذكريـن العنـوان؟ قالـت: فى السـيدة، كان ذلـك منـذ زمـن، مـن المؤكـد تغيـر المـكان وتغـيرت النـاس، قالـت: كنـا نذهـب سـاعات ونعـود، كنـا نـزور عمـك، قال لهـا: عمـى؟ أنا لى عـم؟ قالـت: غـير مُسـتقر هـيروح ويجـي إلى هـذا البيـت إنـه صغـير، هـو ابـن عـم أبـوك ليـس أخـوه لانعـرف أين هـو، فمذ زمـن لا يزورنـا هنا، هربـت منه وقالـت: سـأكوى ملابس ماجد وأعـد الشـاى ليتجهـز لموعـد وصـول والدك مـن المسـجد «كان حريصـا على صـلاة العشـاء بالزاويـة القريبة من البيـت»، قطعت الحديـث ولم تُكملـه، تركتـه فى حـيرة مـن أمـره، بـدأت تخميناتـه وحدسـه تنجـلى وتتوثق، ولكـن توجد ثغـرة مبهمة، تلـك الثغرة التـى مـررت حياة تلـك الأسرة حتـى الآن، وجعلتهـا تطفو فوق سـطح الحيـاة حتـى الآن. أخـذ منـه العمل وقتـا كبـيرا. فى الفترة الأخـير ضغـط وحسـابات يتـم إعادتهـا، أخطـاء واردة ولكـن تداركهـا كان لصالـح سـمُعة المكتب. كان لمجـدى دور واضح فى كشـف الأخطـاء بمراجعاتـه الدقيقة.

***

-٤-

بـدأ مجدى يهتـم بوالـده ويراقبه بحـذر، لم يفكر يومـا أن يفعل ذلـك بعمـد أو بـلا عمـد ولكـن قـوة تدفعـه ليبحـث عـن أصل منبتـه، كل النصائـح التـى لقنها لنفسـه ذهبت مع الريـح، أراد أن يبحـث فى حـى السيده ولكن أيـن يبحث؟!

كان رجـل ليـس مـن الحـارة دائما مـا يأتـى ويجلس مـع والده فى المقهـى، اعتقـد مجـدى انـه قـد يكن صاحـب عمل قديـم، كان والـده يبالـغ فى إكرامـه، ولكن لم يـأتِ بـه إلى البيت أبـدًا، أوصى عامـل المقهـى إذا جـاء هـذا الرجـل وجلـس مـع والـده أن يقوم بإبلاغـه ودس فى يـده بعـض المـال ليهتم وتـرك معه رقـم هاتفه.

ذات يـوم تأخـرت فاطمـة عـن موعـد وصولهـا، كان مجـدى حريصـا أن ينقـل من هاتفهـا كل الأسـماء بأرقامهـا وبعِلمها، كل محـاولات الاتصـال بهـا تؤيد عـدم وجـود الهاتف فى حيز شـبكة الاتصـال، أو ربـما الهاتـف أنهـى شـحن بطاريتـه، طفـق ماجـد يبحـث عنهـا، ومجـدى يبحـث فى مـكان آخـر، اتصـل بأربعة من

صديقاتها المسجلين فى هاتفها، جميعهم أجمعن على خروجها من الجامعة بعد آخر محاضره، ظل الجميع فى ترقب وتلهف لعودتها، الليل أرخى سدوله، وتسرب الشك لدى الجميع أن مكروها ما قد أصاب فاطمة، لا تغيب عن البيت أبدا إلا إذا أخبرت أمها بأنها قد تتأخر لتُذاكر عند أحد صديقاتها أو تتأخر عن المجىء إذا ما زارت إحدى زميلاتها أو ذهبن لشراء شىء، الجميع دخل إليه شك فى اختطافها، يئسوا جميعا لما انتصف الليل، لم يتم اللجوء للشرطة بعد، لم يغمض لأحد فى البيت جَفن، انقضى الليل بطوله الذى تاهت بين طياته العقول وظلت ما بين شرود وتخمين، وتوقع متباين مابين الخير والشر ومابين الفرح والحُزن، يرتدى الوالد ملابسه، تُساعده الأم على اكتمال قيافته وكأنه سينتقل إلى مكان بعيد، اعتذر مجدى لصاحب المكتب عن العمل هذا اليوم، لم يقص له شيئا من الأحداث وإن كان سيعلم كما سيعلم الجميع إذا ما تم إبلاغ الشرطة.

خرج والده وطلب مجدى منه مرافقته ولكنه رفض، لم يتعجب مجدى، بل استقرأ شيئا يشوبه الغموض، شك أن والده يعرف مالا يعرفه أحد، كيف سيرتاح من هذا الاستبهام، لم ينم الليل وماجد أيضًا، تقفى مجدى أثر والده، ركب تاكسى وتابع سيره يلاحقه، انخرط فى شوارع وأماكن لم يلجها من قبل، وقف أمام مبنى متداعٍ، يوجد به ورشة ميكانيكا، ترجل والده ومن خلال انتظام سيره بدا أنه يعرف

مـكان خطوتـه إلى أين تتجـه، وجـده يدخل فى نفـس المبنى صعد الـدرج، مـن منظر البيـت الخارجـى يبدو أنه خـالٍ من السُـكان، أو أنـه مكمن للبـوم والخفافيـش، منظره يوحـى باللاحياه، صعد مجـدى خلـف والده بحـذر وعندما شـعر بأقدام تهبط الـدرج عاد سريعـا وخـرج، فمـن يهبـط قطعًـا كان سيسـأله إلى إيـن يصعـد، فشـل مجـدى فى الصعـود، وقف بعيـدًا يراقـب البيت عـن كثب، نفس الشـخص يخـرج ويدخـل، ووالـده مـازال فى الداخل تحقق مـن الشـارع والمـكان، ودرس منظـر البيت ثـم عاد وسـبق والده إلى البيـت، تـسرب إليـه بعـض الأمـان أن فاطمـة لم يصبها سـوء بعـد، انتظـر فى البيت قـدوم والـده كأنـه لم يقتفِ أثـره، وبدخول الوالـد التـف حولـه الجميـع، الأم بها بـرود وعدم تلهـف وكأنها تعلـم مـا فى جعبـة الوالـد، قـال لـيروى ظمأهـم أنـه عمل محضر بتغييبهـا، مجـدى يعلـم أن والـده لا يروى لهـم ماحـدث، ولم يذكر ذهابـه إلى هـذا المـكان الـذى ربـما كان وكـرا لمجرمـين، بـل تخاله مـن أول نظـرة أنه مهجـور ومرتـع للفئـران والبـوم والخفافيش، ولكنـه مـن الداخـل ينبـض بالحيـاة ويحاكى الشـقق الفاخـرة من حيـث دهـان الحوائط والسـتائر المخمليـة، والأثـاث الحديث من أجمـل الأنـواع يحاكـى فورمـات الأثـاث الإيطالى.

بعـد انتصـاف الليـل خرج مجـدى مرتديـا جاكت احـترازا من بـرد وقسـوة الشـتاء، ووضـع عـلى كتفه شـالا من خزانـة ملابس والـده، اسـتقل التاكسـى وذهـب إلى حيـث البيـت الـذى دخلـه والـده، نـزل عـلى ناصيـة الشـارع، كان بـاب المدخـل فى الـدور

الأرضى مفتوحـا بمواربـة، الشـارع شـبه خـالٍ مـن السـابلة، فالجميـع احتمـى بجـدران البيـوت مـن قسـوة الـبرد القـارس، تلفـع بالشـال فحجـب وجهـه ورأسـه ولم تـبرز إلا عينـاه، لم يثـر شـك أحـد لأن الـبرد جعلـه فعـل يفعـل كـما يفعـل الكثيرين.

دلـف إلى الداخـل وصعـد الـدرج، ثمـة لمبـة باهتـة الإضـاءة موضوعـة فى منتصـف السـلم، ولكنهـا تكشـف وتميـز الـدرج، كان البيـت عبـارة عـن دور أرضى ودور أول فقـط، حـاول فتـح البـاب، لـف الأوكـرة فانفتـح البـاب زادت دقـات قلبـه، هـرع مـن مفاجـأة فتـح البـاب، توقـع أن أحـدا ينتظـره فسـهلوا عليـه الأمـر، ضغـط عـلى مكبـس النـور، توقـع أن يـرى أحـدا، ولكنه لم يجـد أحـدا، ثمـة صـورة لرجـل سـتينى موضوعـة عـلى الجدار تأخـذك بمجـرد أن يُفتـح البـاب، طفـق يلـج كل الغـرف، لم يجد أحـدا، يوجـد غرفتـا نـوم مفروشـتان، وغرفـة طعـام ومطبـخ وفتـح الثلاجـة فوجدهـا ممتلئـة بالطعـام والفاكهـة وزجاجـات الميـاه، يسـائل نفسـه: أين نـاس البيت؟ ظـن أن كمينـا منصوبا له وتوقـع الخطـر، وضـع يـده بجانبه وتحسـس المطـواة التـى جلبها معـه يسـتمد مـن تأكد وجودهـا بعض الأمـان والقوة، بدأ يشـعر بالخـوف يتملـك منـه، انسـحب بسـهولة كـما دخـل بسـهولة، لم يعـترض طريقـة أحـد، هبـط الـدرج وخـرج وهـو يلتفـت يمنـة ويسـرة، مـازال الشـارع خاليـا مـن السـابلة، اتخـذ طريـق العودة إلى البيـت، فـزع وظـل صامتًـا، حـاول سـائق التاكسـى أن يبادله

أطـراف الحديـث ولكنـه أعرض عـن مسـايرته، فصمـت الرجل حتـى وقـف به عـلى مقربة مـن البيـت، يوجد شـىء غـير طبيعى يـدور فى فلـك البيت، هـو يشـعر أن الجميع يعرف شـيئا لا يعرفه هـو، لا توجد أى معـالم للقلق أو الذعر أوالخـوف على أمه، ماجد مـازال بالخـارج، يمسـح كل الأماكـن التـى قـد يحتمـل أن تكون ذهبـت إليهـا فاطمـة، قـد تذهـب إليهـا، انفـرد بأمه، اسـتعطفها أن تخـبره مـا الذى يحـدث؟ قال لهـا: أين فاطمـة؟! لم تحـر جوابا، أطرقـت برأسـها لأسـف وطفقـت تبكـى وتـذرف العـبرات ونفـت علمهـا بـأى شـىء، ولكنهـا قالـت لـه إن والـده ذهـب لشـخص يعـرف مـن لهـم سـوابق فى خطـف البنـات أو الأطفال ورجـاه أن يخبره عن أى شـىء يعرفـه. فى الصباح سـأبلغ الشرطة عـن تغيبهـا، اسـتعطفته ألا يفعل شـيئا دون علم والـده، يبدو أن الوالـد لـه رأى آخـر، يواجه مجـدى أشـياء يلتبس عليـه إن كانت واقعـا أم خيـالا، هـل كان يعلـم مـن فى البيـت بقدومـه فأخلوه، أم لمحـة والـده وهـو يتعقبـه أثنـاء النهـار، مـن فى هـذا البيـت يعرفونـه حـق المعرفـة لذلـك اختفوا وقـت قدومه، هكـذا حدث نفسـه، فاطمـة أين أنـت الآن؟! هل سـنجدك مقتولـة أم مغتصبة لتلبسـينى العـار وتزيدى عـارا جديدا عـلى عارى القديـم، هكذا يسـائل نفسـه ويتوعدها بمسـتقبل مشـحون من كل أنـواع الأذى المعنـوى والمـادى، ومـا اسـتطاع أن يخفـي حقيقتـه، سيسـتجد ما يعجـز أن يواريـه فى ظـل الأخبـار التـى تلـف الكون فى سـاعات عـبر شـبكات التواصل الاجتماعـى. ثم انهمرت العـبرات مدرارًا

وهـو يتخيـل الضائقـة التى تلم بهـا أخته الآن، عـاد ماجد ممتعضا يتمتـم ويقـول: لم أجد لهـا أثرا. لم أترك مستشـفى إلا و سـألت فى اسـتعلاماتها، قـال لـه مجدى:

- تنـاول عشـاءك وحـاول أن تنـام لنبحـث مـن جديـد عنـد طلـوع النهـار.

فى الصباح طلـب مجـدى مـن والـده أن يذهبـا لعمـل محـضر عـن تغيـب فاطمة، قـال: قـد تدلنـا الشرطة عليهـا، أو تسـاعدنا إذا مـا اسـتحدث شـىء بشـأنها.

قـال: أخـاف أن يـلاك اسـمها بـين الناس فهـى فتـاة، أرى أن نصـبر يومًـا آخـر لعلهـا تعود.

قـال مجـدى: لابـد من الذهـاب للشرطـة لابديل حتـى نهتدى إليها.

خنـع والـده إلى مـا يريـد، ولمـا ذهبـوا وقامـوا بعمـل محـضر فى الشرطـة للإبـلاغ عـن تغيبهـا، وقامـت إدارة قسـم الشرطـة بالتحـرى والاتصـال بعـد سـاعة أخبرهـم الضابـط الـذى تـولى عمليـة التحرى والاسـتبيان عنهـا أنها محتجزة فى شرطـة الآداب، لم يتحمـل الوالـد أن يكمـل سـماع الأخبار التـى يقولهـا الضابط، فجلـس مصدومـا فلـم تقوى قدمـاه على حمله، اسـتوقف تاكسـيا وطلـب من والـده أن يذهب للبيـت، رفض والده تركـه بمفرده، ولكنـه رجـا والـده أن يذهـب، فانصاع لطلـب مجدى وغـادر إلى البيـت، وذهب مجـدى إلى المحامى فلـم يجده فذهـب إلى المحكمة

واصطحبه معه، كانت موجودة فى بيت مشبوه بصُحبة صديقة لها، هجمت شرطة الآداب فأخذتها مع من وجدوهم فى حالة تلبس وعرى، كانت جالسة فى الصالة بكامل ثيابها، نظرًا لمستقبلها وحرصا على سُمعتها وافق الضابط على الإفراج عنها بسبب عدم القبض عليها متلبسة، نظرت فى عين مجدى تلتمس ألا تنزل قدر ذرة من نظره، قالت: كنت مع صديقتى، طلبت منى أن نذهب لتشترى عطورا من صاحبة البيت، قالت إنها تبيع أجود أنواع العطر بسعر متدنٍّ، قالت: أول مرة تأتى إليها صديقتى قد دلتها عليها زبونة تروج لتلك السيدة، قالت: حاولنا الانصراف ولكن كانت صاحبة البيت تترجانا بحجة أن عينات العطور قادمة مع المندوب الذى تتعامل معه فى غضون دقائق، ثم هجمت الشرطة وتبين كل شىء، أقسمت لمجدى أن هذا ما حدث، مسح مجدى على رأسها.

قال: أثق فى صدقك وفى كل كلامك.

وطلب مجدى من المحامى أن يطلب من الضابط خروج صديقتها، تفهم الضابط وتم الإفراج عن صديقتها معها.

دخل مجدى البيت وخلفه فاطمة مطأطئة الرأس مما يظنون بظاهر الأمر وسكن فى يقينهم قبل أن يزيله مجدى بسرده لهم حقيقة ماحدث، لم تقتنع الأم، وأصرت أن تذهب بفاطمة إلى طبيبة نساء لتتحقق من عُذريتها، ضحك مجدى فى داخله وقال: من المفترض أن تصمتى ولا تتحدثى أنتِ عن الشرف، ألا يُذكرك رؤيتك لى أنى علامة ودليل على عدم شرفك؟!

أفاق من شروده وقال لأمه: لا داعى هى قالت الحق ولم يحدث شىء مما فى خيالك.

احتمت فاطمة بمجدى، لقد أجاد الدفاع عنها باستماته، الوالد خرج للمقهى وقد صدق الرواية التى قصها مجدى وحمد الله. خرج الوالد، ودخل مجدى عند فاطمة وطلب منها أن تنسى كل شىء وأوصاها بعدم دخول أى بيت ولا الذهاب مع أى أحد ألا بعلم أمها.

اتصل عامل المقهى وأخبر مجدى أن الرجل جاء للمقهى والآن هو يجلس قبالة والده على نفس المنضدة التى يجلس عليها والده، كان وقت الأصيل، وما إن ذهب مجدى وكان منظرهم من بُعد يوحى بانهماكهم فى حديث مهم ومطول، ولكنهما صمتا بمجرد وقوف مجدى بجوار والده، تذكر مجدى الرجل، إنه صاحب البيت المفتوح الذى اخترقه بكل سهولة، الآن رآه من قُرب، لقد كانت صورته موضوعة فى إطار ومعلقة على جدار الحائط فى صالون البيت، صافح مجدى الرجل الغريب ثم طلب من والده بعض المال بذريعة أنه فقد «الفيزا كارت»، أخذ المال وطبع صورة الرجل الغريب فى خياله، ثم انصرف يدرس ويخمن تفسيرًا لذلك، كلما مر الوقت كلما شعر أنه فى دوامة تدور به ولا نهاية لدورانها، وكلما حاول صرف فكره عن كل الهواجس التى تطارده، وجد نفسه مدفوعا بقوة تحوم حول هذا الاستبهام الذى يغازل فضوله ليلًا ونهارا.

***

-٥-

جاءت سهام تطرق بابه فقد غاب عنها مرة أخرى ليس عن تعمد ولكن عن انشغال، تأسف لها وبرر لها أن ضغط العمل هو المسئول عن كل هذا الانشغال، ليس عنها فقط، بل عن الجميع، ترجلا حيث الأصيل ونسمات هواء صافية تلفح وجهيهما، الطبيعة فى حالة رضا وصفاء، والشمس تسحب أذيالها والسماء صافية مزينة بكتل السحاب البيضاء المتقطعة التى تسبح إلى اللا نهاية، قالت: سَهُل عليك إهمالى فلا سؤال ولا أتصال؟!، قال: لاتظلمينى وثقى فى أعذارى التى وضحتُها لكِ، قالت له: فاطمة عادت؟ هرع من سؤالها وقال: فاطمة لم تغب حتى تعود، قالت: تقبل أسفى كنت أتوقع أنك ستخبريننى لأنى أعتبر نفسى أحد أفراد أسرتكم.

قال: لم يحدث شيء، مجرد سوء تفاهم وتم حله.

ولما وجدت أن وجهه بدأ يمتقع، غيرت الموضوع وسألته عن موعد ابتدئه فى تجهيز الشقة التى ستزوجان فيها.

مـاذا لـو أخبرهـا بحقيقتـه؟!، هل سـتكمل معه أم سـتتملص مـن ارتباطهـا بـه؟!

لم يجب على سـؤالها عـن تجهيزات الشـقة إنـما بادرها بسـؤال، قـال: مـاذا لـو علمـتِ أنى كنـت عـلى علاقة مشـبوهة مـع امرأة أخـرى ثـم تركتهـا مـن أجل حُبـك ومـن أجلك؟!

قالت: بالتأكيد سنفترق كلانا فى طريق غير الآخر.

جفـل منهـا وسـأل نفسـه: مـاذا لـو علمـت حقيقتـه بعـد زواجهـما، فمن الواضـح أنها علمـت موضوع فاطمـة من الألف إلى اليـاء، فـكان مـن الأولى أن تصمـت حتـى لا تجرحـه مـا دام لم يخبرهـا بشـىء، وفضـل أن يكن لـه خصوصياتـه التـى لا يذكرها أمـام أحـد، أيـا كان درجـة ارتباطـه بـه.

نـزع خاتـم الخطبـة مـن يـده وأعطاهـا إيـاه وقـال لهـا: مـن الصعـب أن نُكمـل حياتنـا معًـا، كان ينتظـر منهـا أن تدافـع عـن حبهـا لـه وهـو تحت ضغـط إحـراج وانكسـار وهـى أمامهـا، فاطمـة أختـه طاهـرة ولم يمسسـها أحـد بسـوء، ولكن اللبـن يتم تعكـيره مـن أقل ذرة غبـار، ولكن حـدث عكس مـا كان يتوقعه، فقـد قامت بنـزع خاتمـه وأعطته إيـاه وقالـت: فعلت مـا حاولت أن أفعلـه وفشـلت، ولكـن عليـك أن تصـون أختـك.

انصرفـت مسرعـة ودموعهـا تهطـل وهـى تبكـى متهدجـة، انصرفـت وطعنتـه طعنـة نجـلاء، ولكنـه حمـد الله لأنـه عـرف مكنونهـا، وعـرف أنهـا تحمـل قلبـا لا يغفـر.

عـاد بمفـرده ولكنـه عـاد مشـحونا ومطعونـا فى شرف أختـه، كـما طُعـن هـو فى شرف أمه دون أن يعلـم أحد، انتحـى بأمه جانبا وطلـب منهـا أن تذهـب إلى طبيبـة أمـراض نسـاء وتكشـف على عُذريـة فاطمـة، أومـأت أمـه إيـماءة تعجـب، ولكن أمـه تملصت مـن ذلك لأنهـا تثق أنها ستفشـل فى إقنـاع فاطمة، وربـما يكون فى ذلـك جـرح لها، قد يـترك أثرا لا يُنسـى مـع الزمـن، ولكن مجدى تحـدث مـع فاطمـة، وأخبرهـا أن الجميـع قـد علـم بموضـوع احتجازهـا، أقنعهـا أن ذهابهـا سـيخرس الألسـنة، رضخـت فاطمـة لرغبـة مجـدى فهـى تعـرف أنـه يُحب لهـا الخير.

بعـد انتظـار أربع سـاعات من بعـد الظهر حتـى وصلت قُرب الغـروب، الجميـع يترقب وصولهـما، وبالفعل عادت الأم باسـمة فرِحـة وفاطمـة دخلـت غرفتهـا منكـسرة انكسـار الشريفـة التى لم تجـد ثقـة مـن حولهـا حيالهـا موجـودة عـلى الـدوام كـما كانـت تحسَـب ذلـك، ولكـن مجرد ذكـر شرطـة الآداب هـو بمثابـة هالة وسـيل جـارف مـن الاتهامـات لابـد أن تمطرهـا الظنـون حتـى تتحـول لسـيل جـارف، فـلا تقف عنـد الـسر والكتمان، بـل لابد أن تطفـو عـلى السـطح بالاسـتفهام وطلـب التوضيـح، ولكنهـا أيضـا تنفسـت الصعـداء بعـد أن ثبُـت براءتهـا بالدليـل القاطع.

عـاد مـرة أخرى يتذكـر البيـت المفتـوح، وقد وضـع تخمينات واقعيـة، أمـا أن أهـل البيت كانـوا مدعويـن فى زفاف أو ما شـابه ذلـك، ونسـوا البـاب مفتوحـا أو عدم التأكـد من غلقـه، أما باب المدخـل فيبـدو أنه لا يتم إغلاقه من الأسـاس، أو كانـوا يتوقعون

دخوله إذا ما كان قد رآه أحد، وهو يحاول أن يدخل خلف والده وتراجع بعدما سمع دبيب خطوات تهبط الدرج، ثم لم تتح له فرصة المحاولة من جديد، ولكن لِمَ فعلوا ذلك؟!، إلا إذا كانوا يعرفونه ويتلاشون مقابلته، وهذا هو الحدس الأقرب إليه، أم أن هذا البيت المتداعى بها كاميرا كشفت صعوده فأخذوا حاجزا من حيث يرونه وهو لا يراهم، إنه لم ير صاحب البيت الذى كان يجلس مع والده فى المقهى، أين خبأ زوجته وأبناءه فى هذا الوقت المتأخر من الليل؟! ربما يعرفونه، لم يعلم مجدى أن هذا الرجل ابن عم والده واسمه «غريب» ولا يقابل والده إلا على المقهى، لم يعلم أن هذا البيت لا يسكنه أحد سواه، يقطن فيه بعض أيام وإن زاد قد يبقى شهرًا، ثم يعود للقرية المنحدر منها فى صعيد مصر، عليه أن يسلم أنه ضعيف أمام الجميع. هكذا يرى مجدى نفسه، يظن أن الجميع من حوله يعرفون كل شىء عنه.أ

صبحت ثقته بنفسه مهزوزة، لم يتحمل سؤالا عاديا من سهام فتوجس منها فى المستقبل خيفة، فكسر بخاطرها وفسخ الخِطبة، وألقى بعلاقة عامين من الارتباط عرض الحائط، مقابل لحظة غضب، كان يكفيه الصمت والتروى حتى يتغلب على لحظات الانفعال التى تلاشى بها مشروع زواجهما، وإن كانت قد تعدت أدب الوداع إلا أنها أخطأت تحت تأثير الصدمة التى لم تكن تتوقعها منه على الإطلاق، أصبح مجدى منقادا خلف العاطفة والإحساس، لقد ألغى اللجوء لعقله وأوصد فكره ونحى التروى جانبًا.

فكـر أن يذهـب مـرة أخـرى ليقابـل هـذا الرجل، يسـأله عن والـده ويسـأله إن كان لهـم أقـارب فى مـكان مـا، مجـدى لم يعرف لوالـده أقـارب ولا عائلـة، ربـما يهتـدى لأصـل الحكايـة، ومـا الدافـع الـذى جعـل والده يـرضى باسـتمرار الوضع المـزرى، إلا إذا كان مُجـبرا تحـت تأثـير الوحـدة وانعـدام العـزوة التـى تغـذى القـوة والشـجاعة، لم ينكـر مجدى منـذ أن سـمع حوارهمـا عنـه، فلـم يـر منه سـوءا حتى يجحـده أو ينكـره أبوته، كان أبـا ذا ضمير حـى، بالرغـم مـن أنـه ليـس الأب البيولوجـى لـه إلا أنـه كان له ابـن الفِـراش! كثـيرا مـا كان يرددهـا أمـام نفسـه قائلا فى نفسـه: «أنـا ابـن الفـراش»، أصبـح فى حكـم ابنـه يرثـه ويورثه.

فى المسـاء أجتمعـت الآسرة عـلى مائـدة العشـاء، اندمجـت فاطمـة كأن شـيئا لم يحـدث، وتناسـت مـا حـدث كما طلـب منها مجـدى، الأم تقـوم بإعـداد الشـاى وفاطمة جمعـت ما عـلى المائدة وتغسـل الأطبـاق، يسـاعدها ماجـد وهـو سـعيد لعـودة فاطمـة بـلا أذى ألم بهـا أو وقـع سـىء عـلى الأسره، سـأل مجـدى والـده عـن مـكان عائلتهـم وذكـره أنـه لم يذكـر لهـم شـيئا عـن أصولهم أو منبـت أجـداده، قـال: مـن الواضح أننا لسـنا مـن القاهرة وإلا لـكان لنا أقـارب.

لم يحـر الوالـد جوابا وشـعر بتلعثم والـكلام ثقيل على لسـانه، فحمـل معه الشـاى ودخـل غرفتـه، الأم نظرت إلى مجـدى وكأنها تعاتبـه لأنـه لم يخبرهـا هـى أولا بـما يريـد معرفتـه، لم يشـعر مجدى أنـه أخطأ فسـؤاله مـشروع وغـير مُغضب.

ثمة أسئلة تجثم على صدره تحتاج أجوبة وتوضيحا، العلاقة مابين والده ووالدته تسير على نهج واحد رتيب لا يتغير، وكأنها جُبلت على الطاعة وجبل هو على التفنن فى إرضائها، فلم يجدهما يومًا اختلفوا أو نشب بينهما عِراك كما يرى عند الجيران، لم يلحظ من والده تقصيرا ولم يرها يومًا تطلب ما يستعصى عليه جوابه، كل شىء يسير فى نظام واحد، وكأنه آلة مبرمجة على نظام يومى.

قبل أن ينام كان يطالع الأخبار على شبكات التواصل على حاسوبه الخاص، قرعت فاطمة الباب ودخلت عليه وسألته إن كان يريد شايا لتعده له، كان يعرف أنها لا تريد إعداد الشاى له تحديدًا، ولكنها اتخذت الشاى الطريق الذى يوصلها إليه، قال لها: أريد شايا، ولكن قولى ما تريديه أولا.

ابتسمت لحدة ذكائه ثم قالت: سهام!، قال لها: مابها؟ قالت: لم تركتم بعضكم ؟! قال: اكتشفت أننا لانصلح لبعض فلا أريد أن أظلمها معى.

قالت: سهام أنسب إنسانة لك.

قال: أنتِ لا تعلمين شيئا.

قالت: أعلم كل شىء، هى حكت لى، وندمت وأنا سامحتها وهى صالحتنى واعتذرت، فقد أخبرتنى أنها لاكتنى بالسوء، فأنا لا يهمنى أقاويل أحد.

طلـب منهـا مجـدى ألا تتدخـل فى هـذا الشـأن، فهـو خـاص بمسـتقبله، و هـو فقـط مـن يعلـم مـا يصلـح لـه فى المُسـتقبل.

طلـب منهـا ألا تغضـب، معلـلا أنـه أدرى بـما يفيـده وبـما يـضره، وأعلمهـا أنـه وضع نفسـه فى فـترة تمحيص ليرى المشـاعر التـى يكنهـا لسـهام، مشـاعر حُـب أم شـىء آخـر يتم اسـتدعاؤه عـلى سـبيل العـادة وكأنـه واجـب لابـد مـن قضائه؟!

قالـت له إنها اتخـذت نفس موقفـك الأخير، سـترفض العودة إذا مـا طلبـت انت ذلك

قالـت إنها اسـتفادت من تجربـة خطبتك بها واكتمـل نضجها، كـما أنها طلبت أن نظـل أصدقاء فى التواصـل والواقع.

قال لها: أنت من ذهبتِ إليها؟

قالـت: لقد وصلتنى رسـائل عـلى الخاص فى برنامج ماسـنجر أنهـا غير حزينـة ولا نادمة.

***

-٦-

وقـف مجـدى فى منتصـف الطريـق لا يعـرف إن كان قد أحب سـهام أم لا، عـاد مـن جديـد يفيق من غضبـه وتهوره الـذى أدى بـه إلى نتائـج غـير مرغـوب فيها، هـل يعود لهـا ويقدم اعتـذاره؟

عـاد قلبـه يخفق بحبهـا والندم والحُـزن خيما على قلبـه، عليه أن يُعالـج نفسـه أولا مـن هواجسـه وفوبيا خوفـه من انكشـاف هذا العـار الخفى الـذى لم يخرج عـن ثلاثتهم هـو ووالده وأمـه، فأبوه وأمـه لا يعرفـان أنـه علـم بشـىء من هـذا القبيـل، فقـد كانا على مـدار عمريهـما حريصين عـلى التكتم، يوبـخ ذاته ويقرعهـا، يقول لهـا: عـلىَّ أن أعيـش حياتى، فما مضى ليـس فيه دخـل، تذكر جزءا مـن آيـة فى كتـاب الله: «تلـك أمـة قد خلـت لها مـا كسـبت...».

ثـم قـال: يبـدو حقًـا أن مـا فعلـه الآباء يشـقى بـه الأبنـاء. ثم عـاد مـن جديـد يفكـر فى البيـت المفتـوح لابـد أن يحـوم حولـه ليعـرف حقيقتـه التـى تـراود خيالـه. إن هـذا لـه علاقـة بعائلتـه وخاصـة أنـه عندمـا اقـترب مـن هـذا الرجـل وهـو جالـس مـع والـده شـعر بارتيـاح إليـه كأنه قـد رآه من قبـل، رآه مألوفـا لديه.

خطـر عـلى خياله وجـه والـده وهو غاضـب عندما سـأله عن أصـول عائلتـه، تُـرى مـا الـذى أغضبـه منى؟! سـأل نفسـه هذا السـؤال وهـو فى حـيرة مـن غضـب والـده، قـال: لعـلى ذكرتـه بذكريـات أليمـة عاشـها قديـمًا ولا يُريـد أن يتذكرهـا!

انتهـى مـن عملـه وتوجـه إلى سـهام، فقـد مـر أسـبوع وهـو يتقلـب عـلى نـار الشـوق والعـذاب، اكتشـف أنهـا حياتـه التـى يحيـا مـن أجلهـا، قـرع البـاب، كانـت هـى مـن فتـح لـه، لم تنظر إلى العـين السـحرية، فلـو علمـت أنـه هو مـا فتحت لـه ولتركت أمهـا تقـوم بذلك، لقـد خطـف لُبها وتـضرج وجهها وتسـمرت مكانهـا لحظات طويلـة، أخذت فيهـا وأصابها البكـم العارض، لم تجـد ردا إلا أن دخلـت هاربـة واضعـة كفيهـا على عينيهـا لتوارى العَـبرات التـى هطلت آليًـا، حاول أن يهـدىء من روعهـا، وأمها واقفـة متخـذة دور المشـاهد الـذى لا حـول لها ولا قـوة، مسـح عـلى رأسـها وتأسـف لهـا واعـدًا إياهـا أن مـا حـدث لـن يتكـرر مـرة أخـرى، وأخـرج خاتـم الخطبـة يُريـد أن يضعـه فى أصبعها، أطبقـت أصابعهـا وقالـت: لا، لا الوقـت قـد فات.

تعجب وقبل أن يستوضح المزيد قالت:

- لقـد طلبنـى رجـل آخـر ووالـدى أعطـاه كلمـة وسـنقرأ الفاتحـة بعـد غـد.

صُـدم مجدى وقـال مُسـتحيل، والمفاجـأة أن من يريـد خطبتها صاحـب مكتب المحاسـبة الذى يعمـل به مجدى، قالـت له ذلك،

وكأنها تريد أن تقول له: لقد جاء من هو أفضل منك ليتزوج بى، ولكنها ليست سعيدة بذلك الزواج، وهو الذى أجبرها أن تقبل بأول خاطب من بعد فض خطوبتها إرضاءً لأمها، وتلاشيا غضب والدها، فهى من اختارت مجدى ورفضت ترشيحات والدها لها ممن جاء لخطبتها قبل أن يخطبها مجدى ثم توافق على مجدى فى تحدٍّ صارخ لهما.

قال لها: ولكن منير متزوج ومعه أولاد.

قالت له إنه قال انه انفصل عن زوجته.

قال: مستحيل ولا يجرؤ؛ فالمكان الذى فتح فيه مكتب المحاسبة ملك لوالد زوجته.

صمت هنيهة ثم قال:

لابد أن نعود لبعض، أما منير فى الحالتين سأترك العمل معه، فإذا تزوجته لن يطيق أن يعمل معه خطيب زوجته السابق، وإن رفضته واخترتِ أن نعود لبعضنا سيثق أنى السبب فى عدم إتمام زواجه بك، وأنت تستحقين التضحية بوظيفتى وعشاءنا على الله.

ثم ضحك، مدت أصبعها ووضع الخاتم وقال بتهكم: يسقط مُنير. وكررت خلفه: يسقط منير.

دخل والدها ووبخها أن قبلت وارتدت الخاتم مرة أخرى دون أن تأخذ رأيه. فقالت له إن منير معه أربعة أبناء ولم ولن يطلق زوجته. ثم قالت له: حتى مكتب المحاسبة ليس ملكه.

ضغطت على ثغرة العشم الكاذب فى ثـراء منير، فهدأت ثورته ووبـخ مجـدى على تسرعـه فى فسـخ الخطبة ثـم العودة، وقـال له: بنات الناس ليسـت لعبة للـترك والعودة، صمت مجـدى واعتذر. واتصـل والدهـا بمنـير واعتـذر له عـن إتمـام الخطبة وقـال له إنها عـادت لخطيبهـا بعـد اتضـاح سـوء التفاهـم الـذى فـرق بينهـم.

ولمـا ذهـب مجـدى إلى العمـل كان يتوقـع منـير فى انتظـاره ليسـتوضح منـه، وكان يتوقـع أنه سيسـأله عما قاله لسـهام وأهلها عنـه، ولكـن جـاءه منـير إلى مكتبـه وجلـس قبالتـه ثـم قـال لـه: لاتفهـم تقدمـى لخطبة سـهام أنى أحبهـا أو طامع فيهـا، إنما كنت أريد إنسـانة بسـيطة وحسـب، فقد يئسـت مـن أسـاليب زوجتى المتعاليـة، وقـد وصلت خلافتنـا إلى حد الخصام، واعتـزال بعضنا البعـض ونحـن تحت سـقف واحد، قـال مجدى: لم يحدث شـىء، أى فتـاة عُرضـة للخطوبـة مـن أى أحـد مـا دامـت خاليـة بـلا ارتبـاط أو زواج.

هُنـا أصبـح مجـدى يقـف عـلى أرض صلبـة، فهـو يخشـى أن يتـسرب خـبر تلـك الخطبـة إلى زوجتـه، إن اسـتمرار مجـدى فى العمـل بـل وأخـبره بزيـاد راتبـه اعتـبره رشـوة مقابـل الصمت، وهـو فى الأسـاس لـن يفعـل مـا يتوجـس منـير منـه خيفـة، وفى النهايـة أقنـع نفسـه أنـه رزق سـاقه الله إليـه، ولابـد ألا يرفضه ما دام لم يسـع إلى تلـك الزيـادة فى الراتـب الشـهرى.

***

-٧-

بمجرد علم فاطمة بخبر عودة مجدى لِخطبة سهام مرة أخرى طلبت من مجدى أن يأخذها لزيارتها، أخذت منه مالا واشترت به هدية لسهام تعبيرًا لها عن سعادتها لعودة ارتباطهما من جديد، ثم أجبرته أن يشترى حلوى وفاكهة يحملها هو فى يده، أراد أن يتملص من ذلك فقالت له مثل مشهور بأسلوب ساخر: «بعد السلام ينظرون لما تحت الأكمام»، فضحك مجدى وخضع لرغبتها واشترى ما أرادت، لقد تذكر زيادة الراتب الشهرى فاطمأن قلبه.

غاب الرجل الذى يجلس مع والده فى المقهى فترة، كان مجدى قد أوصى صبى المقهى بالاتصال به حال قدومه، عزم أن يذهب ويستقصى عنه فى محيط منطقته التى يقطنها، ولكنه خاف من توجس الناس منه خيفة، فيظنونه مرشدا للمباحث فلا يصدقونه القول، ولكنه وجد مبررا لزيارته فى بيته بذريعة أنه تغيب عن زيارة والده مما استدعى القلق عليه، ولكنه عاد ودحر تلك الفكرة فمن أجل أن يزوره، لابد أن يكون والده

الـذى أرسـله، وإلا سيسـأله الرجـل مـن دلـك على عنوانـى؟ مما سـيثير حفيظـة الرجل وقلقـه منه.

وذات مسـاء كانـت الأم فى واجـب عـزاء عنـد جـارة كان قد مـات والدهـا، ونـادى الوالد عـلى مجدى الذى شـعر بـأن الكُربة سـتنفرج وسـيخبره والـده بـكل مـا يحـيره، قـال الوالـد لـيروى ظمـأ مجـدى بالتلميـح بمعرفتـه لمـا يُريـد أن يعرفه:

أصلنـا مـن الصعيـد، ومـا أجبرنـى للمجيـىء إلى هنـا ليـس البحـث عـن العمـل، أو وظيفـة ثابتـة كالتـى أتقـاضى معاشـها الآن بعـد أن أتممـت سـن التقاعـد، فقـد كنـا مـن أصحـاب الأطيـان وكنـت أوسـط أخوتـى، وكان الثـأر هـو العِتـة التـى تـأكل أرواح الشـباب لدينـا، الحِميـة القبليـة والتعصـب الأعمى ومـوالاة الأقـارب حتـى لـو كانـوا على غـير صـواب. كان لعمى ابـن غـير صالح مـن دون أخوتـه، بالرغم مـن غنى والـده إلا أن كان منضـما إلى لصـوص المواشـى يعيشـون فى جنح الليـل ليسرقوا مـا عاينـوه وحـددوا موقعـه فى وضـح النهـار، وذات ليلـة اتفقوا عـلى سرِقة ذريبـة كاملة ممتلئة بالمواشـى مسـتغلين مكانـه المترامى عـلى تخـوم القريـة، ولا يعتمـد أصحابـه عـلى حراسـة ليليـة إلا الإغـلاق بقفل سـهل كسـره، لم يعلمـوا أن صاحـب الزريبة يأتى يوميـا مابـين منتصـف الليل والسـاعة الواحدة ليسـقى المواشـى، ويطمئـن إلى أن خطامـات المواشـى مسترسـلة لم يلـف أى خِطـام عـلى رقـاب أحدهـم فتختنـق، ولمـا اقـترب الرجـل مـن الزريبـة سـمع دبيبـا وهسـس كلام، وكان معـه مسـدس فـصرخ بصوت

عـالى لينقـذه أهـالى القريـة ويخـوف اللصـوص ليفـروا هاربـين، ولكـن لم يسـتجب لندائـه أحـد إلا بعـد ربـع سـاعة، وهـو وقت كبـير، بينـما هـو يواجـه أربعـة أو خمسـة لصـوص، فبـدأ يطلـق عليهـم الرصـاص وقـد أخـذ حاجـزا، هـو يكشـفهم وهـم لا يعرفـون موقعـه الذى يترصـد لهم منـه، فاصطاد بالمسـدس منهم اثنـين وصرعهـم وفـر الباقـون، وكان مـن المقتولـين ابـن عمـى.

أجتمعـت العائلـة بعـد دفـن ابـن عمـى وجميعهـم عـلى قلب رجـل واحـد يريـدون الأخـذ بثـأره، لم أكـن دمويـا وكنـت أكره الثـأر بـل وأكـره القتل، وكنـت أميل لـدور القانون كحـل أفضل مـن الثـأر الـذى يولد ثـأرا ودمـا يُسـفك لانهايـة له، فقلـت لهم: عـن أى ثـأر تتحدثـون وهو مقتـول أثنـاء تعديه بالسرقـة؟! فهاج الجميـع بما فيهم أشـقائى، وهـذا مـا أفجعنى، وسـبونى والصقوا بـى صفـة الجُبـن والتهـرب مـن أن أسـاندهم وقالـوا إنـى أخاف مـن المـوت، فمن موجبـات الضحـك أن يجاملك أحـد فى القتل، فيقتـل معـك أو يقـف بجـوارك، فهـم وقفوا معنـا فى ثأر سـابق، فلابـد مـن رد الجميـل لهـم، لم ينصفنـى أحـد فى العائلـة إلا أمـى رحمهـا الله، واجتمـع كبـار العائلـة وحكمـوا عـلىَّ بالرحيل عشرة أعـوام حتـى أبعـد عـن أبنـاء عمـى الذيـن قـد نعـتُّ أخاهـم بالسـارق الـذى يسـتحق القتـل، فى تلـك الفـترة قالـوا إن ذلـك الوقـت سينسـيهم الغضـب والغـل والضيـق الـذى أضمـروه نحـوى، ولا يتحـول الاحتـدام والعراك بـين أبناء العـم. فأردت اسـتفزاز كبـير العائلة الـذى يسـتخدم قوانين لم تكـن موجودة فى

أى مكان إلا فى عائلتنا، فقد كان أصل العائلة من بدو العرب قديما وكانت لهم جلسات يقضى بها وينفذ الحكم كحكم القضاء العادى، قلت له: أنت قضيت بعشرة أعوام وأنا سأكسر كلامك وسأغيب عشرين، ولن أعود فى حُضن الدم والظلم والجور.

انخرط نحوى ابن كبير العائلة ليضربنى قاصدًا تأديبى فصفعنى على خدى، فقمت بصفعة بيمينى وتبعته بالصفعة الثانية بيسارى فخر مغشيًا عليه والدم ينفر من فمه وأنفه، أرسلنى والدى لأقضى المدة بالإسكندرية حيث كان لنا فيها أقارب كثيرون ولوالدى بيت مِلك، وكنت سأقطن فى أحد شققه الخالية وكان بيتا حديث البناء، ولا أعلم مصيره الآن، إن كانوا قد باعوه فى حياة والدى أم بعد موته أم مازال؟! وإن كنت أعلم وقتئذ أن والدى كان قد اشتراه للتجارة، وسط توبيخ والدى لى و أنا خارج من القرية مطرود كان قد أرسل لى مع أمى مبلغا ماليا كبيرا، ودست لى أمى كل ذهبها فى جيبي، وقد تكذبنى لو قلت لك أكثر من مئة وخمسين جراما وما زِلت أحتفظ ببعض منه حتى الآن، ومن محطة القطار ودعنى أشقائى وصعدت قِطار الإسكندرية ولكنى لم أكمل السير إلى الإسكندرية ونزلت من القطار حين توقف فى محطة مصر أو رمسيس كما كنا نعرفها، لمحت غريبا ابن عمى وعلمت أنه يتتبعنى فلم أوله اهتماما ولم أذهب إليه وتجاهلته، كان غريب لا يُحبنى البتة، فقد كان حقودا وسيرته فى البلد غير

سوية، وعزمت على أن أتخذ كل الناس الذين لن يضرونى بسوء أهلًا لى، لم أستأجر بيتا بل سكنت فى لوكاندة رخيصة وبدأت أبحث عن بيت لأشتريه، حتى دلنى سمسار على البيت الذى نعيش فيه الآن، بعد شرائى البيت واستقرارى به بدأت أبحث عن عمل دائم، كان معى مال متبقى كثير.

ودخلت الأم فقطع الوالد الحديث وفطن مجدى أنه لا يريد أن يكمل حديثه، وسطع له تخمينان إما أنه قد أخبرها أنه لن يخبر أحدا منا عن حياته الماضية، والتخمين الثانى أنها قد لاتعرف شيئا من الأساس عن كلام والده الذى قصه له، وهذا هو الأقرب إلى الصواب لأنه بتر الكلام بترا، وربما كان له أسبابه وقتئذ، زاد شوق مجدى ليعرف المزيد، لم ينتشِ مجدى بما علمه من والده عن أصوله المعروفة الطيبة، فهو يعلم أن كل هذا لا يمت له بصلة، فصِلته بوالده الحقيقى انقطعت منذ...، إلا أنه حين كان والده يقص عليه ما جرى له فى الصعيد كان يتملكه شعور البنوة الحقيقية، فكان متفاعلا مع كل كلمة قصها والده عليه، تفاعل وتعجب وامتعض وحزِن معه بكل جوارحه، إنه أحبه كما لو كان والده، لم يغادره شعور أنه ابنه وهو أبوه لحظة واحدة.

أفاق على صوت والدته وهى توبخه لأنه أغضب سهاما وتركها، ثم عاد لها، نظر لوالده مستعطفًا إياه أن ينحاز لصفه ويدعمه، وأومأ له بابتسامة ترجٍّ، ثم قالت له: تلك ليست المرة الأولى، فحذرته من إعادة ذلك مرة أخرى، ثم طلبت

منـه تحديـد موعد للـزواج من أجـل البـدء الفعلى فى تجهيز الشـقة التـى سـيتزوج فيهـا، ثـم قالت لـه: والـدك سـوف يهتـم بالعمال واتـرك أنت معـه المصروفـات حتى نزيـل حجـجك الواهية أنك مشـغول، كان يتـذرع بالعمل والانشـغال، متثاقـل لأبعد الحدود والأم تخشـى مـن ملـل أهل سـهام، أومـأ بالموافقة وقال: أخشـى أن يكـون فى ذلـك جهـد على والـدى، ولكـن والده وافـق وقال: أنـا سـأباشر العـمال فقـط وأقـضى لهـم مـا يحتاجونـه، إنهـا فرصة لأشـغل وقتـى بـدلا مـن الجلـوس فى المقهـى، فاسـتغل مجـدى مجـرى الحديـث وهمـس لوالـده وسـأله عن أخبـار الرجـل الذى كان يجلـس معـه ومـن هـذا الرجـل، نظـر إليـه والـده فى غيـظ وقال:

- أنا نازل للصلاة مع جماعة العشاء بالزاوية.

شعر مجدى أنه أغضب والده بكثرة أسئلته، إلا أنه قال:

- مجرد سؤال ولا شىء فيه يُغضب.

ولكنه قبل أن يُغادر للصلاة قال:

- إن غريب هو نفسه الرجل الذى يجلس معى فى المقهى.

نـزل والـده للصـلاة وبعـد فـترة سـمع مجـدى صـوت صبـى المقهـى فعلـم أن الرجـل جـاء، ولكنـه تذكـر أنـه قـد أعطـاه رقم هاتفـه ليخـبره ثـم خمـن مجـدى سريعـا بأنـه قـد لا يملـك رصيد مكالمـات ثـم تكـرر النـداء، ولكن لمـا كان النـداء به نبرة اسـتغاثة نـزل مُسرعـا، وجـد والـده جالـس عـلى المقعـد أمـام المقهى وفى

حالـة سـيئة، أخـبره رواد المقهـى انـه كان مغشـى عليـه، جلـب تاكسـيا وذهـب بـه إلى المشـفى، جـاء ماجـد وفاطمـة، والأم لم تتنـازل عـن مصاحبتهـم وهـى تبكـى بحُرقـة عليـه، تـم دخولـه إلى الاسـتقبال، تـم تركيـب محاليـل، أجريـت لـه التحاليـل وتبين إصابتـه بالأنيميـا الحـادة، عـرض مجـدى عـلى الطبيـب أن يأخـذ منـه دمـا إلا أن الطبيـب قـال لـه: قد تـم حقـن المحلـول بالحديد وهـو بديـل للـدم. ثـم طمأنـه عـلى حالتـه وصرح لـه باصطحابه إلى البيـت، كان مجـدى أكثـر أخوتـه لهفـة وفزعًـا عليـه، وهو من بـادر بعـرض تبرعـه بالـدم، ولكـن الطبيب رفـض لعـدم حاجة حالـة الوالـد لذلـك، ولمـا عـادوا إلى البيـت بقليل جاءت سـهام ووالدهـا ووالدتهـا، فقـد شـاع خـبر مرضـه سريعـا حـين واتتـه حالـة الإغـماء فى المقهـى، وفى اليـوم التـالى عنـد الأصيـل، وقـد عـاد مجـدى مـن عملـه ففوجـىء برقـم صبـى المقهـى يـرن، علم أن الرجـل جـاء، طفـق يعـدِل مـن هندامـه لينـزل سريعًـا قبل أن يُغـادر، تقابـل معـه وسـط السـلم، يصعـد الـدرج سريعًـا بنفس سُرعـة مجـدى وهـو يهبـط، توقـف مجـدى وصافحـه ورحـب بـه، اصطحبـه حتـى غُرفـة الوالد.

رمـق مجـدى فى عينـى الرجـل اللهفـة والترقـب، ولمـا دخـل ورأى والـده بخـير انطلقـت منه ابتسـامة تشـى بالفرحـة العارمة المخلصـة، صافحـه ثـم مـال الرجـل إلى رأس والـده وقبلـه وحمـد الله عـلى سـلامته، تركهـم مجـدى ثم جلـب كرسـيا، وقعد عـلى مقربـة مـن بـاب الغرفـة ليسـترق السـمع عـلى غـير عادته،

فأمـر هـذا الرجل بـات يهمـه ويشـغله أن يعـرف أى شـىء عنه، فالبرغـم مـن أنـه أخـبره أنـه غريـب الـذى تحدث عنـه وأنـه ابن عـم والـده، إلا أن هـذا الرجـل بـدا لمجـدى كثير الإبهـام، كان صوتهـما وهـم يتحدثـان لا يخـرج مـن بـاب الغرفة، فيئس مجدى فقـام وأبعـد الكرسـى، وكانـت الأم قـد أعدت الشـاى، مـد يده ليتنـاول الصينيـة مـن يـد أمـه ولكنهـا قالـت: سـأدخِل أنـا لهـما الشـاى، تعجـب مجدى من جـرأة أمه وهـى التى تسـتحى من أى غريـب، فتبِعهـا مجدى، صافحـت الرجـل ورحبت بـه ونادته أبو حاتـم، نهـض الرجـل وكان يتحـدث معهـا ووجهـه فى الأرض، تبـين أنهـا تعـرف الرجـل بـل وتصافحه.

إذن والـده يعـرف ابـن عمه هنـا منذ زمـن بعيد، حتـى أن أمه كانـت تعرفـه وسـأل نفسـه: لِمَ لمْ يزورهـم ولِمَ لمْ نـره مـن قبـل؟! سَـهُل الأمـر الآن عـلى مجـدى، بمجـرد ذهـاب الرجل سـيعرف عنـه كل شـىء مـن أمـه. هكـذا حدث نفسـه.

قـام الرجـل مسـتأذنا للخـروج ونـادى الوالـد عـلى مجـدى، وأشـار إلى الرجـل وقـال له: هذا عمـك غريب، ابـن عمى وطالما حدثتـك عـن أصـل بلدنا لابـد أن تعرفه، هـو لم يُكمل شـهرًا منذ أن انتقـل مـن البلـد، يقـول إنـه سيسـتقر ولكنـه سـيعود مثل كل مـرة ولـن يسـتقر، كنـا نرتـب لتتعرفـوا عليه، قالهـا الوالـد عندما وُضـع أمـام الأمـر الواقـع وهـو الـذى ظـل طيلـة حياتـه حاجبا زيارتـه للبيـت فلـم يدعُه عـلى الإطـلاق والسـبب مجهول.

غريب لم يبادر بالزيارة من نفسه إلا عندما علم بمرض الوالد سيد ، وبعد أن نزل معه مجدى أوقف له تاكسيا، هى لم تعلم أنه حكى لمجدى بعض التفاصيل،، فزادت شجاعتها عندما علمت أن سيد عرَّف مجدى على عمه غريب وعلى أثرها قالت:

- لابد أن يعلم الأولاد من أين عائلتك واصل بلدك، بل زاد سقف طموحاتها.

وقالت: ويزورون عائلتهم ويتعرفون على أهاليهم...

قاطعها متوسلا وقال:

- لا، لا أريد أن أفقد أحدهم، يكفيهم أن يعلموا أن لهم أهلا وعزوة وحين يأتى الوقت المناسب سيزورهم جميعا، وقد يكون لنا ميراث مركون لحين عودتى التى لا أنتويها وآمل فى ذلك .

وضحك متهكما ثم سمع وقع خطوات مجدى فنادى عليه أن يأتى إليه، قال الوالد:

- لا تفكر كثيرا وتقول إن أمك صافحته، وهو لم يأتِ إلا من شهر، وبالطبع هو لم يأتِ هنا.

قال مجدى: فعلا، هذا الكلام داعب خيالى. قال الوالد: هو سكن فى» السيده» كان ذلك قبل مولدك أنت وأخوتك، فهو من تتبعنى وسكن بالقرب منى بعد أن اشترى بيتا صغيرا

وقـد سـاعدته فى شرائـه بالشراكـة، ثـم بعد فـترة أعـاد لى نصيبى الـذى دفعتـه، اتخـذ البيـت مرسـى لـه عندما يأتـى مـن الصعيد، كثـيرًا مـا حـاول أن يقنعنـى بالعـودة، ولكـن أنـا مـن رفـض أن يعـود، وكان ينقـل لى أخبـار العائلـة وبحـر الـدم الـذى لم ينتـهِ والأرض التـى استمروا فى بيعهـا حتـى تـآكل أغلبها، قـد يكون فعـل ذلـك بتحريـض من والـدى رحمـه الله، ولكننـى رفضت أن أظهـر صغـيرا حتـى لا يقـول أحد إنـى لم أسـتطيع الوفـاء بحكم قـد ارتضيـت بـه.

كان حكـما قاسيا وظالما ومجحفـا، قـال: مـن داخلى سـعدت لأنى سـأتخلص مـن تلـك الحيـاة الملونة بدمـاء شـبابها، وهذا هو سـبب معرفـة أمـك بـه.

جـال فى خاطـر مجـدى أن هـذا الرجـل ربـما يكـن هو مـن... ولكــن عــاد وقــال: مُسـتحيل وإلا مـا قبلـت الأم أن تحـرص عـلى لقائـه ومصافحتـه بهـذا الاحـترام، ومـن جانبـه أظهـر حياءً كالعـذراء فى خدرهـا بالرغـم مـن أنـه طعـن فى العُمـر وهـو يتحـدث مـع الأم، أسـتأنف الأب حديثـه الأول الـذى قطعـه حينـما دخلـت الأم وقـال:

عندمـا اشـتريت هـذا البيـت وراق لى بحثـت عن عمـل حتى وجـدت عمـلا دائـما براتب شـهرى وتأمين، ظللـت أعمل ثلاث سـنوات لم أتـزوج فيهـا، خـلال الثـلاث سـنوات جاءنـى عمك غريـب يريـد عودتـى مكـررا هـذا الطلـب، ولكننـى رفضـت، وكان هـو تـرك الصعيـد لاعتراضـه عـلى اسـتمرار الحـرص على

التخطيط لأخذ الثأر، ولكنه كان سرعان مايعود مرة أخرى، وكان له ميول غير سوية لذلك لم أحرص أن أسكن بجواره، بل وحرصت على ذلك، ولو سكن بجوارى لانتقلت أنا إلى مكان آخر، كان يريد عودتى لنقض استبعادى وإلغاء مثل تلك القرارات التى لا تُرضى أحدا، كان يريد أن يجعلنى صغيرا أمام الناس فى الصعيد مدعيا حبه لى، أنا كنت أعرف سوء طويته فكنت حذِرا منه، وأحذرك منه فأجعل دائما معرفتك به فى حدود لا تتخطاها.

- ومازلت أحرص على استقباله فى المقهى فقط.

- لا يدخل لى بيت منذ تزوجت، هو منذ صِغرنا يكرهنى، وأنا أتقى شر خيانته، حاول أن يعيش هنا فى مصر بعدما رأى أنى اشتريت بيت فى مصر (أغلب الناس فى محافظات الصعيد تُطلق على محافظتى القاهرة والجيزة اسم مصر)، كان معه مبلغ ليس بالقليل، فطلب منى أن أبحث معه عن بيت له، كانت العقارات رخيصة ولكن المبلغ الذى كان معه كان لا يكفى، فاضطررت إلى مشاركته فى البيت بنصف المبلغ وأصبح البيت مناصفة ولكن هو من سكنه، وبعد عامين أعاد لى ما دفعته له وأصبح البيت ملكه، ولكنه لم يتحمل الحياة كثيرا بعيد عن البلد، وعاد وترك البيت مع صاحب الورشة الذى استأجر الدور الأرضى وحوله لورشة إصلاح سيارات. عمك غريب هو الوحيد فى أهلى من كان معى فى وقت زواجى، وكان يسبب وجوده لى ضيقا لأنى كنت أخشى تخطيطه السيىء.

قال مجدى: هو تزوج هنا؟

قال الوالد: عمك غريب كان متزوجا ولكنه لم يكن يحب زوجته مع أنها ابنة عمه، هو اشترى البيت لأنه كان يخطط للزواج مرة أخرى، ولكن لم يستطيع ومع ذلك لم يُفرط فى البيت على أى أمل لا أعلم حتى الآن، فى الفترة الأخيرة اهتم بالبيت واشترى أثاثا جديدا، يبدو أنه يخطط للزواج، أو سيجلب أحد أبنائه للعيش هُنا.

قاطعه مجدى وقال: ستتجمع العائلة واحدا بعد واحد، ثم قال مجدى سائلًا: هو يسكن بمفرده؟ قال الوالد: هو يمكث شهرا أو اثنين.

يشعر بالملل فيعود للصعيد حتى يغضب منه أحد فيعود إلى هنا، حياته خالية من الاستقرار لأنه يريد الحياة سعادة مستمرة، لذلك لن يستقر أبدًا بالرغم من أن حالته المادية متيسرة بحكم أنه كان وحيدا، ورث والده بمفرده ومعه أخت واحدة وكان سبب بُغضه لى أنى رفضت الزواج من أخته.

لم يذكر له الوالد أنه كان يعاقر الخمر، ويعشق السهر ويطارد النساء، فبعد أن يبيع محصول الأرض يأتى ليمشى خلف نزواته وشهواته، فهو وإن بدا عليه الوقار الآن فذلك نتاج الطعون فى العمر وضياع الصحة، ومع ذلك يأتى ليبحث عن البهجة والسعادة.

قال مجدى: هل أخبرهم فى البلد عن مكانك؟

قـال الوالـد: هـم فى البلـد يعرفـون أن عمـك غريـب يعـرف مكانـى ولكنهـم لم يبـادروا بزيارتـى البتـة، خلال خمس سـنوات مـن رحيـلى مـات والـدى ووالدتـى، عمك غريـب لم يُخبر أحدا عـن مكانى لأنـى من أكـدت عليه ذلـك ألا يُخبر أحـدا أنه يعرف مكانـى، قـال مجـدى: ونصيبك مـن الميراث ألا تسـأل عنـه؟ قال الوالـد: نصيبـى أخذتـه قبـل خروجى مـن البلد أعطانـى والدى مبلغـا كبـيرا، وأعطتنـى أمـى كل ذهبهـا هـذا اعتبرتـه نصيبى، أو اعتبرته نصيبى حتى لا أسـخط عليهـم لانهم باعوا أغلب الأرض كـما أخبرنى غريـب، فغريب يقـول لى إنهم باعـوا أغلب الأرض، وألغـى البحـث عـن إرثى حتـى لا أميـل أو أحـن إلى العـودة إلى مـن ألقـوا بـى فى الغُربـة عشريـن عامـا لمجـرد أنـى وصفـت ابن عمـى أنـه لص يستحق القتـل، ولا يسـتحق أن تُـراق الدماء من أجـل موتـه أو قتلـه، مالـوا إلى الدفـاع عـن لـص، وحرمونى من والـدى وأمـى اللذين ماتـا وأنا فى تعطـش وحنـين لأن أراهما، ما كان والـدى يسـتطيع أن يخـرج عـلى حكـم العائلة، وأنـا رفضت الاعتـذار والتنـازل عن كـون المقتول لصـا، كان يسـتحق العقاب ضربـت بحكمهـم عـرض الحائـط، هُـم قالوا عـشر سـنين إبعاد عـن البلـد وأنـا قلـت عشريـن، وفى قـرارة نفسـى عزمـت عـلى اللاعـودة، كان كلـما جـاء غريـب كنـت أجلـس معه بالسـاعات لأعـرف كل شـىء يـدور، أنظر فى عينيـه التـى رأت والدى وأمى منـذ فترة قريبة، عندمـا مات والدى لم يُخبرنى أحد ولكن شـعرت بـه وهـو مريـض، زارنى فى منامـى أربعة أيـام متتاليـات، وعندما كـف عـن المجـىء لى فى اليـوم الخامـس واتانـى إحسـاس أنـه...

أما عند مرض أمى جاءنى عمك غريب ليخبرنى أنها تُريد رؤيتى، كان قد مر خمسة سنوات على الحُكم الذى حكمته على نفسى، عزمت على زيارتها ليلا والخروج من البلد ليلا حتى لا يرانى أحد، كان البرد شديدا ووصلت إلى البلد بعد انتصاف الليل، اقتربت من البيت فتناهى إلى سمعى صُراخ وعويل، علمت أنها قد ماتت، ولكننى صممت أن أراها قبل أن يدفنوها، كان جميع الرجال مدثرين بالعباءات السوداء والملافح الكشمير، والبرد القارس جعلهم ملثمين لاتبرز إلا العيون، تسللت حتى دخلت البيت لم يُنادى علىَّ أحد، ولم يستوقفنى أحد، الجميع بالطبع يحسبوننى كارم وهو أخى الأكبر وهو أكثر أخوتى شبها لى، أما أخوتى فعرفونى واجتمعنا فى غرفة أمى وهى مسجاة على سريرها مسلمة الروح، حاولت أن أبكى لم أستطع بالرغم من كم الحُزن داخلى عليها، كنت أتمنى أن تخُر عيناى الدمع ليخمد لهيب الألم والحُزن ولكن رؤيتى لها بالرغم من أنها قد ماتت أراح قلبى، قلت فى نفسى إن روحها ما زالت ملازمة الغرفة تحرس الجسد لتصله مع المشيعين إلى مثواه الأخير، ثم تنصرف إلى بارئها، ضممت أخوانى وقبلتهم جميعا، وجاء أختاى ورأيتهنَ ورويت ناظرى برؤيتهن، وزيارتى تلك أكدت لهم معرفة غريب بمكانى، وقبل طلوع الشمس خرجت من القرية دون أن يرانى أحد، عُدت إلى مصر.

هكـذا أنـا وهـذا هـو طبعـى، أقـدس وأعتـز بكلمتـى التـى خرجـت منـى والتزم بها ولـو كان فى ذلك خسـارة ماديـة أو مهما كلفنــى الأمر.

قال مجدى: وما يحدث لو رأك أحد؟!

قـال الوالـد: كنـت سـأصبح صغـيرًا أمـام الجميـع، كونـى أخرجـت كلمـة وحُكـما أمام الرجـال ولم ألتـزم به، بيـد أنى كنت سـأصبح مضطـرا لدفـع شرط جزائى نظـير نقضى الاتفـاق المبرم أمـام رجـال العائلة.

***

-٨-

بدأ مجدى يجمع تفاصيل الحديث الذى سرده عليه والده، ينسج الخيوط ليصل للخامة المناسبة لما يصل به إلى تأويل، لصق فى ذهنه عمه غريب، تراوده وساوس سيئة، الشيطان يعبث بدواخله ويهيىء له ما يكفى أن يصل به إلى ما يريد، ولكن حتى وقتنا هذا عمه غريب يبدوا أنه رجل مركب مابين الخير الظاهر والخِفة والنزق وبعض الصفات غير المحمودة، و كان فيما مضى دنجوان على حد وصف والده أنه كان غير سوى، ثم أرسته الأيام وقابلية الإنسان للتغير والتحلى بالحكمة والوقار وإن كان ظاهريًا، بينما هو فى هالة من الشرود.

استيقظ على صوت أمه تناديه، ذهب نحوها مستجيبا لندائها ولكنها تركته وذهبت للوالد الذى بدأ يسعل فى تزايد متوالٍ فركضت وجلبت له كوب ماء ودواء السعال، انتظرها مجدى وهو يحزر سبب ندائها له، وخمن تثاقله فى البدء فى تجهيز الشقة، عادت بعد أن هدأ الوالد من السعال وقالت:

فاطمـة، أختـك، جـاء لهـا عريـس ونريـد أن نجمـع رأى حـول طلبـه، والـدك موافـق ولكنـه يريـد موافقـة الجميع عليـه، قـال مجـدى: نحـن نعرفه؟

قالت الأم: لا أنه أستاذها فى الجامعة.

قـال مجـدى: يعنى مُعيـد، قالـت: فاطمـة لا، دكتـور عندنا فى الجامعة.

قـال مجـدى: كـم عمـره؟ قالـت فاطمـة: تقريبـا اربعينـى قال مجـدى: أربعينـى يعنـى مقبـل عـلى الخمسـين، متزوج؟

أطرقت فاطمة برأسها لأسفل وقالت: نعم.

ولكـن مجـدى قاطعهـا قائـلا: ولكنـه دائـما مختلـف معهـا ومتفقـين عـلى الانفصـال، وهـى لا تعنـى لـه أى شـىء كزوجة.

قالت فاطمة: ماما حكت لك؟

قـال مجـدى: حكـت لى التجـارب، الجميـع يقول ذلـك ولكن بعـد الـزواج يوجـد أمـر واقـع سـترضخين لـه لأنـك تزوجـتِ وانتهـى كل شـىء، ولكـن فاطمـة قالـت إنـه يريـد مقالبتـك، والوالـد فوضـك أنـت بتـولى أمـر القبـول مـن الرفـض لأنى لن أتزوجـه إن لم توافقـوا عليـه، قـال مجـدى: وهـو كذلـك.

كتـب لهـا عنـوان مكتـب المحاسـبة وكتـب لهـا رقـم هاتفـه وقـال: وهـو فى الطريـق يـرن عـلى هـذا الرقـم، وسـأنتظره.

كانت قد أطلعته على صورته من خلال موقع الجامعة حيث يعرضون أعضاء هيئة التدريس.

وقف بسيارته فذهب فى اتجاهه مجدى، رحب به ثم أوقف السيارة جانبًا وترجلا إلى مقهى قريب، درس مجدى وجهه وجد عمره يزاهى الثانية والأربعين، يزيد عاما أو ينقص، فهو عمر مناسب ووجهه لا يبدو أنه تعدى الأربعين عامًا، رحب به مجدى وجلسا وبعد لحظات صمت، وليدة جفاء عدم التعارف المُسبق، قال له مجدى: حكت لى فاطمة رغبتك الارتباط بها، مع أنك متزوج. قال حامد: أنا فعلا متزوج وسأصل معك لنهاية هذا الموضوع، زوجتى لاترغب أن تكمل معى حياتها، أنا رجل حُر ولن أجبرها على الحياة معى غصبًا عنها سواء كانت تُحب غيرى أو تكرهنى وحسب، ولكننى سأنفذ لها رغبتها وسننفصل، لى ابنة صغيرة ستعيش مع أمها فى حال الانفصال، ولكن إذا تزوجت أمها سآخذها تعيش معى، قال مجدى: والمكان الذى ستتزوج فيه أختى؟ قال حامد: لدى شقتان فى نفس الدورالذى أعيش فيه لا توجد مشكلة فى السكن.

ابتسم مجدى ولمعت الموافقة المبدئية فى عينية وقال: على بركة الله، سأنتظرك أنا ووالدى لنتم كل شىء، وافق ماجد بناءً على موافقة مجدى، وكذلك سعدت الأم عندما وافق مجدى واطمأن قلبها على حياة فاطمة الجديدة.

اتفقـوا عـلى الخطبـة وإتمام الـزواج سـيكون بعد ثلاثة أشـهر، حـاول حامـد أن يسـتعجل أكثـر ويقـرب الوقت وهـو فى حضرة الوالـد، ولكـن مجدى قال بحنـق: لدينا ظـروف وأشـياء لا بد أن يتـم تجهيزهـا وجهـاز لابـد أن يكمـل. فقال حامـد أنـا لا أريدها أن تشـترى شيئا.

فقـال مجدى بغيـظ وبصوت يشـوبه الغضـب: وأنا لـن أخرج أختـى مـن البيـت وجهازهـا ينقصه إبـرة خياطـة، انتهـى الكلام يـا دكتـور حامـد، بعـد ثلاثـة أشـهر يتـم الزفـاف، كان الوالـد يجلـس وهو فخـور بلباقـة وشـجاعة مجـدى وحديثه الـذى أبكم الدكتـور حامـد وحجمـه وجعلـه يرضـخ لمـا قـرره مجـدى مـن تحديـد وقـت الزفاف.

فى اليـوم التـالى مـن خطوبـة فاطمة أحـضر مجدى مبلغـا كبيرا مـن المال سـحبه من حسـابه البنكى وأعطـاه لوالدته أمـام والده، وقـال لهـا: اشـترِ كل مـا يلزم فاطمـة من جهـاز وإن لم يكـفِ هذا أخبرينـى، ولكـن والـده قـال بصـوت عـالٍ: لا، جهـاز فاطمـة مركـون مالـه معـى لوقتـه وجـاء وقتـه الآن، قـال مجـدى: هـى أختـى ولا بـد أن أسـاهم والمـال المدخـر معـك لـن يكفـى لأن الأسـعار زادت والمـال معـك لم يـزد، اقتنـع الوالـد بـكلام مجدى وقـال: نشـترى كل اللـوازم ومـا يتبقـى رديـه لمجدى فهـو يحتاج للتجهيـز مـن أجـل زواجـه أيضًـا، لقـد زاد الوالـد فخـرا وحبـا لمجـدى ومـلأه الحبـور والسرور.

علـم مُنير صاحـب مكتب المُحاسـبة الـذى يعمل بـه بخطوبة فاطمـة وعاتـب مجـدى لأنـه قبِـل أن يزوج أختـه لرجـل متزوج، فقـال مجـدى إنه يملـك قـراره !، صمت مجـدى بعد تلـك الجملة التـى هـزت مُنـير فى كبريائـه فقـال: وضـح كلامك؟ هـل تقصد أنـى ضعيـف؟ أم مـاذا ؟ قـال: هـو زوجتـه لا ترغـب أن تُكمـل حياتهـا معـه أما أنـت زوجتك متمسـكة بك، يوجد فرق شاسـع.

امتـلأ منير ثقة وأنتقخ كبالون نُفخ لتوه، لقد عرف مجدى كيف يُعالـح كبـت مُنير ويمتـص غضبه، بـل وأدخل الـسرور إلى قلبه.

فى المسـاء زار سـهام فى بيتهم، شَـعُر أنـه غاب عنهـا قليلًا، هو لا يقصـد ذلـك وأن كانت لا تفـارق خياله.

قالت له متسائلة: ألم تبدأ فى تشطيب الشقة؟!

قـال: بعـد إنهـاء زواج فاطمـة سـأنتهى منهـا فى فـترة قصـيرة وسـأعد لهـا البرنامـج المضغـوط، وسـيقوم والـدى العزيـز بإدارة ذلك حسـب اتفـاق مُسبق، تفاجـأت سـهام بخـبر زواج فاطمة وهـى لا تعلـم أنهـا قـد تـم خِطبتهـا مـن الأسـاس، أعتـذر لهـا مجـدى عن عـدم إخبارهـا ولكـن الأمر جـاء مفاجئا وتـم بسرعة ثـم روى لهـا ماجـرى مـن أمـر فاطمة.

غضبـت سـهام من مجـدى، وقالـت لـه: كان من المفـترض أن تخبرنـى بأمـر فاطمـة مـن البدايـة باعتبـارى أحـد أفـراد الأسرة، فقـال لهـا مجـدى: بالطبـع أنـت مـن الأسرة وتقبـلى عُـذرى عـن خطئـى غـير المقصود.

ابتسمت سهام وتخلت عن وجومها فطلب من أمها أن تُعد لهما شاى، أمها تعتقد أنه يُريد أن ينفرد بها فلم تعلم أنه بالفعل يريد أن يشرب شايا فهو يُحب الشاى لدرجة العشق، قال لها: نخرج نتناول العشاء فى الخارج، فردت عليه فى تهكم: جميل. وقالت: وماذا لو أحضرت لك الآن العشاء هنا والآن، بل وشىء تعشقه أنت، لحمة ومكرونة بالصلصة، كانت تعلم أنه يستحى أن يأكل عندهم، فتلك طبيعة به ولكنها اختصرت العشاء بأن جلبت صحن به مكرونة وقطعتين من لحم العجل، فقال: مُستحيل. فقالت: لاتستحِ أمى ذهبت عند الجيران فسال ريقه وفُتحت شهيته وطفق يتذوق ملعقة تلو الأخرى حتى أجهز على الصحن وختم باللحم ثم قال: الله ينور على من طبخ، قالت: سوف أعد لك من ذلك عندما آتى عندك، فرفع يده بالدعاء وقال: يارب قرب البعيد، تضرج وجهها حياءً وانصرفت لتعد له الشاى، كان مجدى ينظر إلى سهام نظرة مودة واحترام وانها من ستهون عليه الآتى من حياته، حتى أن رد فعلها سريع وقت الغضب إلا أنها تملك قلبا أبيض وطوية سليمة، ويرى أنها سهلة العريكة، نادرا ما تطلب شيئا، بل هو من يأتى لها بهدية من آن لآخر ليدخل السرور إلى قلبها، لم يبحث عن ذات المال ولا الوظيفة التى تدعم اقتصاد بيته المستقلى، ولكنه وجدها على حالتها التى عليها لا وظيفة لا مال لأهلها لأحد، وصفهم أغنياء، بل هو أحبها وحسب، فانحاز للحب دون أى حسابات أخرى، حتى عندما طلبت منه أن يساعدها فى إيجاد عمل وهى متمكنة

فى العمـل عـلى الآلـة الكاتبـة والحاسـوب، ولكنـه رفـض وقال: أريـدك لى فقـط، لاعمـل إلا مواصلات إلا وقت إضافى إ ولا توسـل لعـلاوات، أو تزلـق لمدير قـد يجلـب بعض التنـازلات، قـال لها: مـا يأتـى لى مـن دخل سـوف يكفينـا إن شـاء الله.

***

-٩-

ذات مساء كان الوالد خارج البيت، قرع الباب، وفتحت الأم الباب، لمح مجدى رجلا ممسكا بعصا وملابسه رثة توشى بأنه سائل، صرف مجدى عينيه عنه حتى لا يُحرجه حتى تأتى له الأم بما ستعطيه إياه وينصرف، ولكن وقفتها طالت معه بعض الشىء وكثُر الكلام وطال الحوار، بمجرد أن اقترب مجدى انصرف الرجل متكئًا على عصا وهو يعرج، سأل أمه عن هذا الرجل فقالت: سائل وأخذ مافيه النصيب، ولما نظر مجدى من الشُرفة رأى والده قادما حيث سيقابل هذا الرجل، وثق مجدى أن هذا الرجل يعرف والده حق المعرفة لأن الرجل انزوى إلى البقال، ومثل أنه سيشترى شيئًا ما حتى مر الوالد، فترك الرجل دكان البِقالة وانصرف دون أن يشترى شيئًا.

جلست الأم وقد اعتراها الهمْ والحُزن بظهور أخيها المختفى من عشرين عاما، ستبدأ المصائب تحل عليها عن طريقه كما هو الحال من عشرين عاما أو يزيد، كان قد قضى ثلاث سنوات فى السجن فى جناية سرقة، ثم خرج واختفى

عشرين عامًا، فُقد أمل وجوده على قيد الحياة، وبقدر حُزنها على غيابه بحكم عاطفة الأخوة إلا أنها كانت سعيدة وقد ارتاح الجميع من شره، ولما عاد الوالد بعد أن صلى العشاء بالزاوية التى فى آخر الشارع، قالت له: خبر سيء ينتظرك فلا تتفاجأ، قال لها: خير إن شاء الله؟!، قالت: ماهر ظهر !، قال: ماهر أخوكِ؟!، صمتت وأومأت بالإيجاب، جلس وقد هُم هو الآخر، قالت: أعطيته بعض المال!، كان واضح عليه الجوع والحاجة، ويعرج على قدمه اليمنى، خشيت أن يدخل فتغضب إذا رجعت ووجدته.

قال الوالد: سامحه الله لقد فعل بنا الكثير وأضرنا وشوهنا أمام أنفسنا وكسرنا، حسبنا الله ونعم الوكيل.هم الوالد لينزل فسألته الأم عن سبب نزوله، فقال: سألحق به لأعرف أين يعيش؟ لا يجب أن يسكن الشوارع متشردا فمهما يكن هو خال أبنائى، قالت: ستأتى به لهنا؟ قال: بالطبع لا لا لا، سأكرى له غرفه فوق أى سطوح بالجوار، أغلب الناس لاتعرفه وقد هده الزمن بالطبع، نزل الوالد وبحث عنه حتى تعبت قدماه ثم عاد بلا جدوى مسلِما الأمر إلى أن يعود مرة أخرى ليرى ما يمكن أن يفعله من أجله.

شرد الوالد بالذاكرة حيث أول مرة التقى فيها بماهر كان عن طريق غريب ابن عمه، كانا أصحاب كأس، يشربون حتى تدور رؤسهم، وذات يوم جاء غريب ومعه ماهر، أراد غريب أن يجعله يتوسط لماهر كى يعمل معه فى المصنع، صارحهم

بالحقيقـة، إنه ليس له أى وزن كى يتوسـط لأحد أو يقبل مسـئول التشـغيل وسـاطته، ولكنـه قـال لهـم إنـه سـيعرضه على مسـئول التشـغيل ولو كان فى حاجة إلى عماله سـيكون من حُسـن حظه، فى اليـوم التالى قبله مسـئول التشـغيل وطلـب منه المجـىء للتدريب عـلى العمل وفـترة اختبار ثم سـيتم تثبيتـه، فى فـترة الاختبار دعاه ماهـر عـلى العشـاء ورأى أختـه حميـدة فأعجبتـه، خـلال أسـبوع طلبهـا للـزواج وتـزوج سـيد مـن حميـدة، ثـم تـرك ماهـر العمل ولم يكمـل فـترة الاختبـار، بـل وألغى العمـل فى أى مـكان يكون مرتبطـا بوقـت أو بمشرفـين يسـوقونهم كـما الغنـم، هـم مقيدون للحريـة وماهـر كان لا يحب القيد أو التسـلط، كان يرى كل شـى ء مـن منظـور الطيـش والنـزق وعـدم اللامبـالاة بـأى مسـئولية تُجـبره عـلى التقيـد بنظام رتيـب ثابت يصـل به لمراحـل الاختناق.

بعـد زواجـه بحميـدة ابتعد بهـا بعيدًا عـن محيط أخيهـا ماهر، فمنعهـا مـن زيارته إلا فى حـدود الضرورة، بدأت المشـاكل تفوح مـن قبلـه، وكان بُعـد سـيد عـن بيت ماهـر قـد نـأى عنـه الكثير مـن التدخـلات التـى لا طائـل منهـا إلا تقريعـه وتأنيبـه، ودبـت خلافـات بـين غريب وماهـر وتعـدى ماهر على غريـب بالضرب المـبرح حيـث كان ماهر خبـيرا بفنون القتـال اليدوى واسـتخدام السـنج والسـكين من فرط العراك المسـتمر كل اسبوع أتقن ذلك ممـا جعـل غريبـا يحمـل الكُـره والضغينة لماهـر عندما ضربـه أمام النـاس بـل وأخـذ منـه السـكين وفتـش ملابسـه وأخذ منـه عنوة بعـض المـال، ثـم أشـهر سـلاحه أمام جمـوع النـاس التى تشـاهد

العـراك معلنا اسـتعداده للتصدى لمن تسـول له نفسـه ويدافع عن غريـب، أصبـح لماهـر عـدد لا حـصر لـه مـن الأعـداء يتوعدونه بالـرد عـلى مافعلـه بهـم، لم يكتفِ ماهـر بالسرقـة والبلطجـة، بل وصـل إلى حـد اغتصـاب الكثير مـن النسـاء عنوة، من لم يسـتطع النيـل مـن ماهـر كان يبعث برسـائل تهديـد لأختـه وزوجها حتى يمنعـوا ماهـر عـن قذارته ويكـف أذاه عنهم، وذات مسـاء سـطا ماهـر على بيـت بائعـة لبن كانـت جميلة وصغـيرة، فأغلقـت عليه البـاب بعـد أن ضربتـه على رأسـه بهـراوة فداخت رأسـه وترنح، فخرجـت تـصرخ مسـتنجدة بالنـاس الذيـن سـلموه لقسـم الشرطـة ودخـل السـجن وقضى فيـه ثـلاث سـنوات، وارتاحت المنطقـة والشـارع منه ومـن أذاه الـذى لم يترك صغـيرًا أو كبيرًا إلا وقـد عانـى منه.

فى الصبـاح خـرج الوالـد ليبحث عـن ماهـر، أراد أن يسـيطر عليـه قبـل أن يصـم عائلـة بأسرهـا بماضيـه الملـوث وسـمعته السيئة، كان فيـما مـضى يسـتعمر مقهـى الطيـب الذى غير اسـمه إلى مقهـى الأندلـس، فـلا مـكان لـه يؤويـه وقـد بـاع سـكنه قبل أن يختفـى، حتـى الأثـاث الحقـير وكل متعلقاتـه باعها ثـم اختفى قرابـة العشريـن عامـا، تنفـس فيهـا الصعـداء كل مـن كرهـوه وفرحـوا عندما يئسـوا مـن عودته، عاد مـن جديد ليجبر الجميع عـلى توخـى الحـذر منـه بالرغـم مـن طعونـه فى العمـر وبالرغـم مـن تلاشـى قوتـه، ولكـن قـوة الشر قـد تكون سـاكنة ومترسـبة داخلـه أو لم تبارحـه بعـد.

وجـده جالسـا فى القهـوة متواريـا فى رُكـن تحـت الشـيش، دخـل سـيد المقهـى ليجـده ممسـكا بالسـيجارة وفى يـده الأخـرى كـوب الشـاى، مشـهد متكـرر كأن سـيد تركـه بالأمـس، عندمـا تفاجـأ بسـيد وقـف شـاخص النظـر إليـه متوجـس خيفـة ورد فعـل مشـحون يالتقريـع والتأنيـب عـلى عودتـه غـير المرحـب بهـا، ولكـن سـيد اقـترب منـه وصافحـه وأشـعره ببعـض الفرح لرؤيتـه، أطـرق ماهـر برأسـه لأسـفل مخـذول النفس فـما فعله فى المـاضى تلقـى تبعاتـه سـيد وزوجته، قـال له سـيد: كيـف حالك ياماهـر؟ ومـد إليه يـده ليصافحه، نهـض ماهر فى تثاقـل الخجول ومـد يـده وصافـح سـيد، قـال له سـيد: أين كنـت قرابـة عشرين عامـا، قـال ماهـر: كنـت فى رحلـة هـروب مـن كل شـىء ولكن عجـزت أن أكمـل الهـروب، مهـما شـعرت أنـى بعيـد كل مـا مـضى كان يحاصرنـى، ليتـك كنـت أقـوى منـى فكنـت تضربنـى وتؤدبنـى لتمنعنـى عـن كل الهفـوات التـى حدثـت منـى، ولكن جـاءت ذكراهـا لتطرد النـوم منى، يوجد شـىء حدث بسـببى لا أسـتطيع أن أذكـره لـك، هـذا الشـىء أصبح السـهم الـذى يذبح فى داخـلى كلـما تذكرته، لو اسـتغللت شـبابى وقوتـى فى موضعها الصحيـح لكنـت مثلـك صالحـا يتباهـى بـه أبنـاؤه وزوجتـه، ولكنـه جهـل وبُعـد عـن الله مـع قـوة تحملهـا نفـس بحثـت عن كل شـىء بـلا جهـد أو كـد، نفس تنظـر لما مـع الآخريـن و تمنت الحصـول عليـه فلجـأت إلى القـوة والأخـذ بالغصـب والإكـراه، ليتـك نهرتنـى عـلى أكلى للـمال للحـرام، ليتـك... ثم انهمـر باكيا وألقـى بنفسـه على صـدر سـيد، كان صاحب المقهى يعـرف ماهر

منـذ كان شـابا فتيـا يؤويـه فى المقهـى ليـلا إذا طـارده أحـد، ليس حبًـا فيـه بقـدر مـا كان اتقاءً لـشره، نظر سـيد إلى صاحـب المقهى نظـرة عرفـان عندمـا قـال له ماهـر إنه ينـام فى المقهى ليـلا، ولكن سـيد قـال لـه: سـأكرى لـك غرفـة على سـطح وسـأدبر لـك لك مـا تحتاجه.

أراد أن يُقبـل يـد سـيد فسـحب يده سريعـا، وقام سـيد بكراء غرفـة لـه عـلى سـطح بيـت قديـم كانـت مهملـة وبإيجـار زهيد، ولكـن سـيد طلب منـه ألا يقرب بيتـه حتى يأتى الوقت المناسـب الـذى يسـتدعيه فيـه ويعرفـه على أبنـاء أخته، تـرك معـه مبلغ من المـال وقـال له لننسـى مامـضى ولتفكر فى المستقبل، قال لـه ماهر بعـد أن ابتسـم سـاخرًا مسـتقبل!، أى مُسـتقبل أمامـى !، قـال له سـيد مـا دامـت الـروح فى الجسـد فـلا بـد أن تنظـر إلى المُسـتقبل بعـين الأعتبـار والحـرص عـلى عيشـه فى راحـة و أمـان والتمهيد لذلـك يسـتجوب الحِكمـة والتعقـل، فـلا تُـسرف فى التدخـين واصرف نفسـك عـن كل ما هـو مُـضر، أعتقد أنك تفهـم مقصد الـكلام، قـال ماهر، وهو يسـتمع لسـيد بشـىء من الاهتـمام،: لا تخـف أدخـن فقط وسـأبدأ فى التخفيـف من التدخين لأنى أشـعر بضيـق فى التنفـس وبـدأ فى تزايد.

تركـه سـيد بعـد أن اطمـأن عـلى حفظه مـن التسـكع والتشرد حفاظًـا على سُـمعة أولاده وزوجتـه، وكان دافعه إنسـانيا فى المقام الأول.

***

-١٠-

بـدأت شـكوك جديـد تتولـد داخل مجـدى، هذا الرجـل المثير للجـدل، عمـه غريـب الـذى ظهـر فجـأة وهـو يجـىء ويذهـب عـلى مـدار كل السـنين الماضيـة ولا يأتـى إلى هُنـا إلا فى الشـهور الأخـيرة، هـل سـتتواصل الخيـوط حتـى يصـل إلى نتيجـة تُقنعـه وتُخمـد النـار التـى تؤرقه.

مـر أكثـر من شـهرين واقـترب موعد زفـاف فاطمـة، تم شراء كل جهازهـا، مـا عـاد ينقصهـا شـىء، تبقـى بعـض المـال، أراد الوالـد إعطـاءه لمجـدى ولكنـه رفـض وقـال: أبقـه معـك فمازال بـاب المصروفـات مفتوحـا حتـى يتنهـى الزفاف.

كانـت فاطمـة قد انتهـت من دراسـتها قبل الزفـاف وحصلت عـلى الشـهادة الجامعية، اتفـق معها حامد على البقـاء فى البيت ولا تُفكـر فى العمـل، اسـتجابت لـه ووعدته أنهـا لن تفكـر فى العمل مـا دامـت سـعيدة فى البيـت، أمـا إذا شـعرت بالملـل والفـراغ سـتفكرِ معـه فى حـل يخلصهـا مـن الملـل والفـراغ، هكذا قـال لها

وعدهـا أن الحـوار والبحـث عـن الحلـول سـيكون سـمة حياتنـا قـال لهـا: لـن أنفـرد بقـرار دون الرجـوع إليـك حتـى تشـعرى بقيمتـك وأهميتـك فى حياتـى.

كانـت ليلـة الزفـاف جميلـة والقاعـة مكتظـة بالمدعويـن، لقـد دعـا مجـدى أغلـب أهـل المنطقـة ودعـى زمـلاءه بالعمـل ودعـا أيضًـا أصدقـاءه، أمـا حامـد فـكان المدعـون الذيـن جـاءوا لـه قليلـين لكونـه ثانـى زواج لـه، انتهـت الليلـة عـلى خـير، وحِمـد مجـدى ووالـده الله عـلى ذلـك، أمـا الأم فلـم تكـف عـن البـكاء لفـراق فاطمـة وهـى التـى كانـت تلازمهـا كظِلهـا ليـلًا ونهـارا، ولكـن الوالـد حثهـا عـلى الصبر وقـال لهـا: إن مصـير كل فتاة إلى بيـت زوجهـا فـلا فائـدة مـن الحُـزن الـذى لا يُجـدى.

أطمـأن مجـدى عليهـا عـبر الهاتـف وحمـد الله، وفى الصبـاح ذهبـت لهـا الأم وقـد جهـزت لهـا مـا اسـتطاعت إعـداده مـن أشـهى الأطعمـة التـى حملتهـا معهـا فى سـيارة نسـق مجـدى مـع السـائق مُسـبقًا، ثم تبعهـا مجدى والوالـد وماجد، أطمأنـوا عليها وباركـوا لحامـد وانصرفـوا جميعًـا متمنـين لهـما حيـاة سـعيدة.

ذهـب ماجـد إلى عملـه منـذ الصبـاح، وقـد وجـد لـه مجـدى عمـلا فى صيدلية كمسـاعد صيدلى، والوالـد فى الزاوية منذ صلاة العـصر وهـا هـو المغرب سـيُرفع أذانه، وجـد مجدى فرصـة جيدة ليسـأل أمه عـن هذا الرجـل الغريب الـذى وقفت معه فـترة أمام بـاب الشـقة، قالت إنـه خالـك، قالتهـا دون أن تـدرك أو تقصد، قالتهـا باللاوعـى، اندهـش مجدى بـل وذُهـل، ثم قـال: خالى؟!،

قالـت، بعـد أن أنبـت نفسـها على تسرعهـا فى أخبـاره،: إنـما كان مسـافرا وانقطعـت عنا الأخبار حتـى اعتبرناه فى عـداد الأموات، لذلـك لم نتحـدث عنـه أبـدًا أمامكـم، قال مجـدى فى نفسـه: يبدو مـن منظره أنه لايشرِفـك أن تتحدثى عنه، حتـى أن وجهه به أكثر مـن علامـة مألوفـة، قـال محدثًـا نفسـه أيضًا: مـن الواضـح أنك سـوابق أيها الخـال الفاضل، قالـت الأم: اعتبرنى لم أقل لك شـيئا لأن أخـاك ماجـد وأختـك لا يعرفـان عنه شـيئا حتـى الآن، اترك الوقـت المناسـب للوالـد ليعرفه بكـم وادعِ أنك متفاجـىء عندما يفعـل والـدك ذلـك، قالتهـا باسـتعطاف وتـرجٍ، كان مـن طبيعة الأم أنهـا لا تسـتطيع ترتيـب الـردود، فكانـت تقـول مـا بقلبِهـا فـلا تقـوى عـلى حبـس سر، لذلـك يوجـد الكثـير مـن الأشـياء التـى يخفيهـا الوالـد عنهـا لنزقهـا فى عـدم القـدرة على إخفـاء أو السـيطرة فى ترتيـب الأفـكار وقت ردهـا على أى سـؤال مباغت.

قـال مجـدى لأمـه: لم لا يذهـب والـدى للبلـد ويحصـل عـلى نصيبـه أو يعـرف مصـير ميراثـه إلى أى مـدى قـد آل؟ قالـت: إن غريـب يقول إنهـم قد باعوا أغلب الأرض، وقـال إن حالة والدك الماديـة أحسـن من حـال كل أخوته، هـذا الكلام لم يثبـت فى يقين مجـدى ويجـب التأكـد منـه، فعلى حـد علم مجـدى ومن تقديـره لما سـمع مـن والـده أن جـده كان عنـده الكثـير مـن الأرض، فلابد أنـه تركهـا للتوريـث، قالـت إن غريـب قـال إن الثـأر لم يترك لهم أرضـا وهـذا كلام منـافٍ لما رآه مجـدى عندما اخترق شـقة غريب ولم يجـد فيهـا أحـدا، ولكنـه وجد أثاثـا فخما وسـجادا مـن أجود

الأنـواع، حتـى الدهانـات كانـت جديـدة فى بيـت متداعـى، هذا يـدل على جريـان السـيولة النقديـة معه، وهـو جـزء لا يتجزأ من العائلـة، همهـم واحد والثـأر كان يتحمـل نفقاته الجميـع، فبُغض الوالـد فى حيـاة البلـد ونظـام حيـاة أهلهـا وخاصـة العائلـة التى ينتمـى إليهـا واسـتبداد كبار العائلـة بمقـدرات الآخرين وخاصة الفقـراء بالعائلة لاعـزاء لهم، يشـاركونهم الأحزان وعنـد الزواج لا يزوجونهـم ولا يتزوجـون منهـم، حتـى حـالات طـرد المذنب مـن البلد لمـدة زمنيـة كان يحددهـا كبير العائلـة، حاول سـيد قبل أن يطالـه أن يبطلـه ولم يكـن يعـرف أنـه سـيطاله، لقرابتـه القوية بكبـير العائلـة، ولكنـه عجـز عـن ذلـك وطالـه الإبعـاد، فكـرِة البلـد أشـد كُرهـا، وكـره العائلـة وتمنـى أن ينتمـى لمـكان يصبح فيـه كل واحـد مسـئولا عـن تصرفـه، وكان لـه مـا أراد عندمـا خـرج وسـكن فى القاهـرة وأصبـح حـرًّا طليقـا يتعيـش مـن ثمار عملـه، ويختـار لحياتـه وسـعادته مـا يشـاء دون الرجـوع لأحـد، سـواء كانـت زوجـة أو أصدقاء.

عـاد شرود مجـدى لذلـك اليـوم الـذى دخـل فيـه البيـت المفتـوح، هكـذا أطلـق عليه مجدى هذا الاسـم. هـل رأى غريب مجـدى وهـو قادم فتـوارى ونسـى أن يُغلـق الباب، ولماذا تلاشـى أن يـراه مجـدى، مـازال الوقـت مبكـرا والليـل لم يسـدل ظلامـه بعـد، عـزم مجـدى أن يـزور غريبـا ليوثـق علاقتـه بـه لأنـه هـو الوحيـد الـذى يمثل نقطـة الوصل بينهـم وبين البلـد فى الصعيد، وصـل إلى الشـارع، كان الليـل قـد هجـم، نظـر لأعلى لـيرى نور

الشقة عبر الشُرفة، شعر بيد لامست كتفه وهو يتطلع لأعلى، التفتف وجد الميكانيكى صاحب الورشة التى بالدور الأرضى، عرفه من ملابسه الملطخة بالوسخ والشحم والزيت، قبل أن يسأله الميكانيكى عما يُريد سأله مجدى قائلا: عم غريب موجود الآن؟ قال الميكانيكى: موجود، اصعد له قبل أن ينزل، عادة ما ينزل بعد العشاء ولا يعود إلا متأخرًا، شكره مجدى واستأذنه وانصرف، دلف الباب وصعد الدرج بتمهل وتردد، وصل ولكن الباب كان مُغلقا.

طرق مجدى الباب وبعد قليل فتح غريب الباب، امتقع وجهه وبان عليه الريب والاضطراب من رؤية مجدى، دعاه للدخول وتبعه مجدى، رحب غريب بمجدى وأحضر له عصيرا باردا، جال مجدى بنظره كنوع من أنواع المجاملة وترطيب الجلسة وقال: الوان الشقة مختارة بتناسق والستائر جميلة وأثاثها أجمل ما فيها، تبلد غريب من كلام مجدى الطيب عن الشقة وعجز عن تحصيل أى رد لكلامه فبادره بابتسامة رضا على هذا الإطراء الجميل.

قال مجدى: لمَ لم يأتِ أحد لوالدى ويسترضيه ويطلب منه العودة ولو من باب المجاملة؟! قال: والدك كان عنيدا، وهو من تحدى كبير العائلة الذى حكم بعشر سنين فأضاف والدك عشرة أخرى وأمن كبير العائلة على رد والدك وقال عشرين عاما، فقد رأى أن والدك يسخر منه، وجميع من حكم عليه عاد بعد أسف واعتذار بواسطة المقربين منه.

كان والـدك يريـد أن يلغـى حكـم المجلـس العـرفى، والجميع انحـاز لكبـير العائلـة ضـده مـع أن والدك عـلى حق، قـال مجدى: أنـت تـرى أن والـدى معـه حـق المطالبـة بإلغـاء هـذا النظـام المجحـف الـذى لا يستند عـلى أى مرجـع أو حتـى قانـون، قـال غريـب: إن أصولنـا بدوية ولما سـكنا الحـضر انتقلـت كل عاداتنا وجلسـاتنا ونظامنـا معنـا، يلـف مجـدى حـول غريـب بالأسـئلة ليصـل إلى مصـير نصيـب والـده فى ميراثـه المسـتحق لـه.

قال غريب: والدك يعلم بمجيئك هنا؟

فقال بحنق وامتعاض: ومن أخبرك بعنوانى؟

قـال مجـدى والـدى لا يعـرف شيئا، ثم قـال بعفويـة: أتعرف شـخصا اسـمه ماهـر؟ قـال غريب لـه :لا .

وثـق مجـدى أنـه يكـذب لارتباكـه عندمـا سـمع اسـم ماهـر، قـال مجـدى متسـائلًا: كيـف نحصـل عـلى نصيـب والـدى مـن ميراثـه فى الأرض وفى كل مـا لـه؟

تلعثـم غريـب ولم يحـر جوابًـا لبعض الوقـت ثم قـال: لم يبقى شـىء بسـبب المشـاكل والثـأر وكثـرة الأولاد التـى أكلـت كل الأرض، لم يتبـقَ إلا قراريـط لـكل واحـد مـن أعمامـك.

قـال مجـدى: هـل تـرك جـدى أرضـا لـكل ابـن مـن أبنائـه نصيـب، أم تـم بيـع الأرض فى حيـاة جـدى؟

قـال جـدك لم يبـع شـىء، شَـعُر مجـدى أن غريـب لا يصـدع بالحـق، اسـتأذن فى الخـروج وطلب مـن غريب عدم إخبـار والده بتلـك الزيـارة حـال مقابلتـه له فيـما بعد.

بعـد خـروج مجـدى وانفـراد غريـب بنفسـه تذكر ماهـر وقال فى نفسـه: ماهـر حـى؟!، كان رفيقـه فى السـهر والعربـدة، كان ينفـق ثمـرة محصول أرضـه مع ماهـر فى السـهر والغُرز المشـبوهة ببيع بالمخدرات والأماكن سـيئة السـمعة، كان سـيد يسـتنفر من صداقتهـما المبنيـة عـلى توحدهـم فى الفسـاد والانحطـاط الخُلقى، حتـى أن سـيد كان يعجـب لأمر غريـب الذى خلع زى الحشـمة والوقـار والاسـتقامة الصعيـدى، وطفق يلهث خلف الشـهوات والملـذات تـاركا زوجـة وأبنـاء هـم فى أحـوج مـا يكونـون لـه، نفـرت الدمـوع مـن عينـى غريـب، وقـد كان ماهـر السـبب فى تعذيـب ضمـيره وشـقائه المتواصـل ومجافـاة النـوم لـه، عندمـا فكـر فى طريقـة ينتقـم بها منـه، كان قد تعـرف على راقصـة مبتدئة وواعدهـا فى بيتهـا، لم يكـن بيتـا، بـل كانـت غرفـة فوق سـطوح بيـت قريـب مـن البـار الـذى كانـت تعمـل بـه، لم تكـن الراقصة تغـوى سـيد بقـدر اشـتياقها لمـا فى جيبـه المنتفـخ بالمـال، كانـت الراقصـة عـلى علاقـة قديمة بماهـر، فى الوقـت الذى ذهـب إليها غريـب، زارهـا ماهـر وكانت تهـاب ماهـرا وتتقى شره، فشـهرته وبلطجتـه جعلـت اسـمه معـروف فلا يجـرؤ أن يقـف أمامـه أحد إلا بحيلـة أو يحـرض أحدهـم شرطيـا عليـه، غضـب غريـب من مجـىء ماهـر خلفـه، كان يعتقـد أنـه يلاحقـه ولم يعـرف أنهـا على علاقـة بماهـر مـن قبلـه، لم يتحمـل ماهـر انفعـال غريـب عليـه

وصراخه فى وجهه واتهامه بالخسة والوضاعه، وتقاتلا حتى أبرح ماهر غريب ضربا باللكمات وبالرأس والقدم وبيد المكنسة، ثم طرده خارج شقة الراقصة وهو لا يقوى على تحمل آلام الضرب والدماء التى تنز من رأسه تشعره بمرارة الهزيمة وبقهر الرجال، انصرف مترنحا وهو مكسور أمام نفسه ومهزوما أمام رجولته وقد أضاعها ماهر أمام راقصة لا وزن لها، لم يخرج من بيته وهو يفكر كيف يأخذ حقه من ماهر. عندما صارح نفسه وجد أن ماهر سيتفوق عليه فى أى عِراك باليد لإتقان ماهر البلطجة وفنون القتال التى اكتسبها من كثرة العِراك لنفسه وبالنيابة عن غيره مقابل أجر، وعلم غريب ذات يوم أن ماهر كان مقصودا فى الليلة الماضية بالقتل حيث هجم عليه ثلاثة بهراوات وهو عائد من البار، ولكنه تصدى لهم واستطاع أن يقاتلهم بقدمه وبيده مستدرجهم لهدفه حتى أمسك بكرسى خشبى استطاع أن يقاتلهم به حتى أصاب اثنين منهم وفر الثالث فتعقبه الآخران، كان حديث المنطقة لمدة أسبوع، وهو البطل الذى قاتل ثلاثة مسلحين بالهراوات وهزمهم وهو أعزل.

اضطر غريب أن يتصالح معه ويتملقه ويظهر له الحب والإعجاب بفتونته حتى يجد طريق الانتقام منه، ليسلكه بلاتردد ليشفى غليله ويجبر انكساره أمام نفسه وأمام الراقصة التى كانت تبكى من أجله وهو يُضرب ولا يقوى على مجابهة لكماته التى كانت قوية وسريعة ومتتالية.

ولما علم سيد ما جرى لم ينصفه بل زاده تأنيبًا وتقريعًا وأشعره بطيشه ونزقه واغتاظ غريب لقزامته أمام سيد وهو يمطره نصائح كما الطفل وكأنه شبه وصى عليه يكيل عليه الشتائم والنصائح، وهما قريبان فى العُمر، فاشتد له حنقًا وامتعاضًا، كان وقتئذ سيد متزوج من حميدة أخت ماهر منذ عام أو يزيد، ولكنهما لم ينجبا بعد، وقامت عركة على الملء بين ماهر ورجل كان اسمه بكرى حيث سطا ماهر على بيته وسرق ذهب زوجته بالإكراه وحاول اغتصابها لولا صراخها ففر هاربا، كان ملثما ولكنها عرفته حيث كان زوجها بكرى يناوب هذا الأسبوع بالعمل فى الليل، ولما عاد من العمل حكت لزوجها ماجرى، فقال له: لن أترك حقى وتبادلا اللكمات وفرق بينهما الجمع بسهولة فهما لم يكونا مسلحين، سطعت الفكرة الخبيثة فى خيال غريب أن يأخذ حقه من ماهر عبر حميدة متناسيًا أن زوجها ابن عم له ولكنه تذكر الانتقام وحسب، كان سيد غائبا عن البيت حيث ذهب مع العمال لفرع المصنع فى الإسكندرية لتوقف العمل المؤقت لفترة الصيانة المتوجبة حيث الماكينات كانت دائمة الأعطال فحدث وقتئذ إحلال وتبديل فى الماكينات وإصلاح لبعض الماكينات.

جاءها ليلا كذئب جائع غادر لا يحمل بين طياته إلا الانتقام الدنىء مما لا ذنب لها فيه، جاءها مُلثما طارقًا الباب معتمدا على تخديرها وفعل مايشاء ليتشفى ويخمُد نار الهزيمة والإذلال والانكسار الذى يؤرقه.

فتحت الباب على أثر الطرق الرزين، هجم عليها ماسكا مقدمة رأسها ومتواريا خلفها ومكممًا فمها بمنديل به المخدر،، ثم استيقظت بعد فترة لتجد نفسها مُسجاة على غير ما اعتادت تنام رأسها مكان قدمها وشعرت عند يقظتها بما جرى لها.

ذهبت لماهر لا لتستنجد به إنما ذهبت لتشكوه لنفسه، أخبرته أن من فعل بها ذلك كان يقصد أن ينتقم منه، لم يجد ماهر جوابا بل بدأ يُفكر فى ضحاياه، وجد نفسه يُريد الانتقام فقالت له: ماذا تُريد؟ قال: سأنتقم. قالت ومنهم من أنتقم منك ولكن كنت أنا الضحية.

مكث غريب شهرًا، كان حريصا على أن يراه ماهر وسيد على فترات متقاربة حتى يُبعد الشكوك حوله ثم عاد إلى القرية وغاب قُرابة العام.

***

-١١-

جاءت فاطمة بعد فترة من زواجها تشكوا لمجدى أنه قد تم خداعها، وأن حامد كان يسخر منها عندما قال لها أنه سينفصل عن زوجته، وهى الآن تعيش فى شقتها حياة آسرية مُستقرة لا يشوبها أى أختلاف. قال لها مجدى هل يعاملك معاملة سيئة؟ قالت لا، قال لها هل شعرتى أن حبه لك قد قل أو نضب؟ قالت لا بل هو يزداد لى حُبا ويلبى كل طلباتى الماديه!، قال أن زوجته أستقامت وعرفت أن الأنفصال سيضر بها وكنت أنت السبب الذى جعلتها ينصلح حالها، قال لها حياتك وسعادتك مع زوجك هى الأهم، لاتنظرى لها كعدوة و أجعلى دائما باب التسامح موارب، أنت فى شقة وهى فى الأخرى، وحامد ميسور الحال فلا تسمحى للحقد والغيرة والنظر إليها كضُرة تقاسمك السعادة فيه وتكن سببًا فى قلقة حياتك، ليس أمامك إلا الرضا والرضوخ للأمر الواقع ولا تطلبى منه أن ينفصل عنها. فبعد أن تزوجك لن يظل تأثيرك عليه والرضوخ لطلباتك بنفس قوة تأثيرك عليه قبل الزواج، تفهمت فاطمة مقاصد كلامه وأقتنعت

-١٢-

بـدأ مجـدى التجهيـز فى شـقة الـزواج الكائنـة فى نفس البيـت الـذى يقطنونـه، والـذى هو ملـك لهم، نظام تقسـيم البيـت قديم ويصلـح لتفصيل شـقتين فى الـدور، ولكنه يحتاج للـمال والوقت، وهـذا الأمـر مؤجَـل النظر فيـه لما بعـد زواج مجـدى، وهـذا مـا يجـول فى خاطـر مجدى حيـث قال لنفسـه:

– لمَ لا نعيـد بنـاء البيـت ونصعـد بـه عـدة أدوار يتـم تأجيرها ليـدر دخلا شـهريا؟

ولمـا بحـث عـن طريقة تمويـل ذلك ذهـب عقله لمـيراث والده فى البلـد، هـو لم يثـق فى كلام غريـب الـذى يناقـض الواقـع الذى يبـدو عليـه، فغريـب يعيـش حيـاة العُمـد لا يفعـل شـيئا هنـا إلا إنفـاق المـال والذهـاب والمجـىء مـن الصعيـد إلى هُنا، ومـن هُنا إلى الصعيـد، وكأنـه يتخـذ هـذا السـفر المُضنـى رحلات شـهرية ونصـف شـهرية، كان مجـدى يقصـد مـن حرصـه على نيـل والده ميراثـه مـن بـاب العـدل والإنصـاف، فهـو لا يـرضى أن يظلمـه

أحـد، لذلـك يريـد أن يقتنـص لـه ميراثـه من بـين يدى أشـقائه، فهـو يـرى والده مسـالما لأبعـد الحـدود، لا يريـد أن يقلقـل حياة أشـقائه بمطالبتـه بإرثـه، وقـد اعتـادوا عـلى حياتهم بدونـه حتى أنهـم لم يفكـروا يومـا أن يـزوره أو يبحثـوا عـن مكانـه وهـم يعرفـون جميعـا أن غريبـا يعـرف طريقـه بل ويـزوره.

أعطـى والـده دُفعـة مـن المـال ليقـوم بـالإشراف عـلى تجهيـز الشـقه، اتفـق الوالـد مـع المبيضـين، ومنهـم مـن تعهد لـه بجلب كل مـا يحتاجـه مـن دهانـين ومبلطـين سـيرامك وأرضيـات بـل ونجـار بـاب وشـباك سـيختارنه بعنايـة، وسـباك المنطقـة هو من سـيتولى أعـمال السـباكة وهـو معـروف بجـودة صنعته.

تـم إنجـاز تجهيـز الشـقة فى غضـون شـهرين، كانـت الشـقة جاهـزة للإقامة، وكان لسـهام دور فى اختيار الـوان طلاء الحوائط وألـوان السـتائر لتتماشـى مع ألـوان الأثـاث الذى اشـترته.

فى المسـاء دعـا الوالـد مجـدى ليذهـب معـه حيـث يذهـب، اسـتجاب مجـدى دون أن يسـأله عن وجهته، ترجـلا ماينهاز عشر دقائـق، ثـم توقفـا أمـام بيـت كان الوالد سـيهم بالدخـول ولكنه توقـف ليتحـدث مـع مجـدى ثـم طفـق يقـص عليـه الخبر أنـه له خـال كان غائبـا لفـترة كبـيرة من الزمـن ثم عـاد، قال إنه يسـكن ه،ا وأشـار لأعـلى بيـت واقفـين أمامـه، قـال الوالـد إنـه مريـض ويحتـاج لبعـض الرعاية، طلب مـن مجدى أن يلقى عليـه نظرة كل يـوم. وقـال إنه سيرسـل أمـه فى الصباح يوميا لتغسـل له ملابسـه وتنظـف لـه الغرفـة، قـال الوالـد إن هذا أمـر لا يجـب أن يدارى.

صعـدا درج البيـت حيـث يقطـن عـلى السـطوح، فتـح الوالد البـاب بعـد أن طرقـه، كان مسـجى عـلى السريـر ويبـدو عليـه الإنهـاك، اقـترب منه مجـدى وأمسـك بيـده ضاغطًا إياهـا بمودة، نظـر ماهـر إليـه وأدار وجهـه ببعـض الحيـاء، وكأن لسـان حـال الموقـف يقـول إنهـم ذكـروه بمسـاوئه وتاريخـه الأسـود، وضـع مجـدى يـده عـلى رأسـه وجبينـه فوجـد درجـة حرارتـه مُرتفعـة، قـال مجـدى: سـأحضر الطبيـب، ولكـن والـده استوقفه وقـال: لقـد أحـضرت طبيبا وجلبـت الدواء، علـم ماجد من أمـه حكاية خالـه الـذى عـاد من بعـد غيبـة وأصر على زيارتـه مع أمـه عندما تذهـب إليـه فى الصبـاح، وبالفعـل ذهـب مع أمـه والوالـد الذى ذهـب بهـم إليـه ليعرفـا مـكان سـكنه، لقد مـلأت السـعادة قلب وملامـح ماهـر، وجودهـم بجـواره فى مرضـه أسـعده وأتعسـه، بعـد أن شـعر أن لـه قيمة بالنسـبة للآخرين، سَـعِد أنـه يوجد من يهتـم لأمـره، وشـعر بالتعاسـة لأنـه لم يكـن حريصـا عـلى تكوين أسرة، وانسـاق خلـف شـيطانه واغـتراره بقوتـه وعنفوانـه فى الوقـت الـذى تكالـب أغلب من هـم أضعف منـه قـوة وعنفوانا أن يبنـوا بيوتـا وينجبـوا أطفالَ يرتكـزون عليهم وقـت ضعفهم.

سـأل مجدى والده عن عمه غريب ففوجـئ عندما أخبره والده أن غريـب قـد غـادر إلى الصعيـد، ربط مجدى فى نفسـه بـين عودة غريـب للصعيد فجأة وبين سـؤاله إياه إن كان يعـرف ماهر أم لا.

مـرض ماهـر عـشرة أيـام وكل يـوم كانـت حالتـه مـن سـىء لأسـوأ، حتـى وافتـه المنيـة بعـد أن زارتـه فاطمـة ورأتـه وعرفت

أنـه خالهـا قبل أن يمـوت بيومـين، وأشـفقت عليه لكونـه وحيدًا مريضًـا، فذرفـت عليـه الدمـع مدرارا. .شَعُر سـيد أنـه فعـل مـا أمـلاه عليـه ضمـيره نحـو ماهـر ومـن نحـو آخـر أرضى زوجته، فـلا شـك أنهـا كانـت تُحـب أخاهـا مهما حـدث منـه أيـام الصبا.

بعد أيام الحداد الذى لم يشـعر بحُزنها أحد إلا الأم كونه أخاها، شـكرت زوجهـا لصنيعه مع أخيها، ولكنه كفهـا عن ذلك، وقال: لقـد فعلـت الواجب الذى يقتـضى على الأهل فِعله تجاه بعضهم.

ناقـش مجـدى موضـوع المـيراث مـع والـده الذى تحـدث عن عـدم حاجتـه له بنـاء عـلى المعلومـات التـى كان يخبره بهـا غريب عـن تقلـص الأرض إلى شـىء لايُذكـر ولا يسـتحق المطالبـة بـه، قـال الوالـد إنه سـيترك ماله مـن الأرض القليلة المُتبقية لأشـقائه، فهـم لا يعملـون إلا بـالأرض، وهُـم فى حاجة لها عـن حاجته هو لهـا، أراد مجـدى أن يسـتأذن والـده فى أن يذهـب لزيـارة أعمامه فى الصعيـد، ولكنـه تذكـر غريبـا، إنه موجـود فى هذا الوقـت هناك، آثـر أن ينتظـر حتى يعـود غريب.

كانـت الأم تشـعر بعـض التوعـك نتيجـة ضعـف تناولهـا للطعـام، لفـت رأسـها ومـرض الضغـط عبـث بقواهـا، توالـت ذكرياتهـا مـع أخيهـا بالرغم من طيشـه ونزقـه وكثرة مشـاكله لمن حولـه، إلا أنـه كان يُحبهـا وكان دائـما يبـدو طفـلا أمامهـا، وكان ينظـر إليهـا كأم، وقـد عجـزت أمهـا عـن الحركة لمـرض ألم بها، لم تمكُـث بعـده إلا سـنتين ثم رحلـت، فكانـت حميدة مـن تقوم على

خدمتـه، كان لهـما معـاش والدهمـا حتـى بلـغ ماهر سـن الرُّشـد، واسـتمر معـاش حميـدة حتـى تزوجـت، ولكـن ماهـر انحـرف ولم يسـتطع أن يكمـل دراسـته لعـدم وجـود موجـه لـه يعينه على إدراك أيـن تكمـن مصلحتـه، هـى لم تـر أفعالـه لأنـه كان يظهـر أمامهـا بـدور الأخ القائـم عـلى رعايتهـا وحمايتهـا، ولكـن أخبار أفعالـه كانـت تصـل إليهـا، حتـى تزوجـت من سـيد الـذى كان يعامـل ماهـر فى أضيـق الحـدود، كان يوجد تنافـر بينهـما، وكثيرا مـا كان النـاس يشـكون لسـيد من أفعـال ماهـر وسـفالته وطولة لسـانه ويـده، فكان سـيد يزيـد اجتنابا لـه وابتعادا، حتـى جاءت سـيدة ومعهـا طفـل عمـره يناهـز أربـع سـنوات، قالـت إن ماهر يريـد أن يتزوجنـى وأن لا أريـد أن أتـزوج لصـا وقاطـع طريـق و...، قـال لهـا: لـن يضايقـك بعـد الآن، وسـألها عـن اسـمها، قالـت لـه: سـميحة «بائعـة الكرشـة»، اغتاظـت حميـدة لوصفهـا أخيهـا باللـص، وقبـل تُبـادر بالدفـاع عـن أخيها، أسـكتها سـيد بـأن بوضع سـبابته قـرب فمـه موحيًا لهـا بالتـزام الصمـت، كان سـيد قوى البنيـة ولكنـه كان صبـورًا وهادئا، ولا يُظهـر الغضب إلا فى أضيـق الحـدود، ذهـب إليـه سـيد وصحـب معـه حميـدة، صافـح حميـدة مبتسـمًا لهـا وقابـل سـيد بوجـه عابـث، كان ماهـر يظـن أن أحـدًا مـا شـكى إليـه منـه، وكان ظنـه فى محلـه، قـال لـه سـيد: ابتعـد عن سـميحة بائعـة الكرشـة. ضحك ماهر بسـخرية وأراد أن يمـد يـده على سـيد بالـضرب دون مراعاة لوجـود أخته حميـدة التـى هـى زوجة سـيد، ولكن سـيد اقـترب منه ولـف يده

حول عنقه وضغط وهو يكرر: ابتعد عن سميحة، ابتعد عن أى سيدة مطلقة أو أرملة، لقد جلبت لنا المصائب.

كان ماهر يضرب سيد بالكلمات ولكن سيد ثابت على قبضته، خارت قوى ماهر وضعُفت لكماته التى لم تؤثر فى سيد ثم أطلقه سيد قبل أن يموت فى يده، كانت حميدة حائرة مابين خوفها على أخيها من قوة سيد التى لم تكتشفها على حقيقتها إلا توًّا، وبين غضبه أيضا الذى لم تره يعتريه بصورة واضحة إلا توًّا، كم كانت تتمنى صلاح حال أخيها، ولكنه كان عنيدا، اغتر بشبابه وأضاع نفسه فى براثن سوء السلوك، وأصبح هدفًا للشرطة لتقى الناس من شرِّه.

تذكرت الأذى الذى نالها بسببه تلك الليلة الليلاء التى هاجمها مُلثم، لم تر منه إلا مكان جرح قديم وآثار غُرز الخياطة وضح أمامها من أعلى الكف حتى قُرب الكوع، ثم وضع منديلا وكممها ولم تفق إلا فى الصباح، وشعرت بعد يقظتها بما حدث لها، كان سيد فى الإسكندرية وقارب على المجىء لاستئناف العمل بمصنع القاهره، كان سيد بعيدا عنها قرابة أربعين يومًا.

جاء سيد فرحًا وسعادة الأرض تملأ قلبه، فقد كانت أطول فترة يبتعد فيها عن حميدة، لذلك كان اللقاء بعد العودة له طابع خاص لديه، حيث الفُراق قد طال، كانت تعلم بقُرب رجوعه، فلم تهتم ولم تفرح فكان أمامها هم ثقيل جاثم على

قلبهـا، بمجـرد أن دخـل البيـت وجدهـا واجمـة على غـير عادتها، وعـلى غـير مـا كان يتوقع لقاءهمـا من بعد طـول الغيـاب، طلبت منـه الانفصـال، فوجـئ ولكنه تمهل قبـل أى رد من قِبله ثم سـألها عـن السـبب، كـررت الطلـب وهـى مبديـة العِنـد والتصميـم، فقـال لهـا: ثقـى بمجـرد معرفتـى السـبب لـن أتـردد فى طلاقك، ثـم طفقـت تقـص لـه مـا حـدث لهـا تلـك الليلـه، منـذ أن هجم كالذئـب وفشـل محاولتهـا فى المقاومـة لـه حتـى كممهـا بالمنديـل حتـى اسـتيقظت وشـعُرت بـما جـرى لها، صمـت صمتًـا طويلا، كانـت تنتظـر منـه خـروج كلمـة الطـلاق، كان يعـرف أنهـا طيبة ليـس بهـا سـوء أو غنـج حتـى تستسـلم استسـلام المتعـة لطالمـا فشـلت مقاومتهـا، وثـق أن مـا حـدث لهـا كان أثنـاء نومهـا تحت تأثـير المخـدِر، أفـاق مـن شرود ذهنـه، ربـت عليها وقبل رأسـها تخفيفًـا عنهـا وتهوينـا لتُلقـى هـم توقـع غضبـه المتوقـع ولكنـه لم يلمسـها أو يقربهـا، أنـف من قُربهـا توقعًا من أن يكـن حدث حمل مـن تلـك الفِعلـة الدنيئـة، بالرغـم مـن أنهـم ينتظرون حملهـا منذ زواجهـما ولم يحـدث، ومـرت أيـام قليلـة ولم تحـض فى موعدهـا، توقعـت أن يكـون تأخـر أو اختـلاق قد يحـدث للنسـاء فى فترات الحيـض ولكنهـا لم تحض، بعـد أيام التأخـر المتوقعة، بـدأت تلطم وجههـا وتمـرغ جبينهـا فى أرض الشـقة، يعـود سـيد مـن العمـل ليجدهـا متكومـة فى رُكن الكنبة واضعة رأسـها بـين كفيها، بدأت تلطـم عـلى وجهها مـن جديد وتقـول له: طلقنـى، طلقنـى، فَهم سـيد ماتعجـز عـن قولـه، هـدأ مـن روعهـا وقـال لها: لـن نهرب

مـن المكتـوب، أراد أن يطمئنهـا فقـال لهـا: مهـما حدث لـن أفرط فى ظفـر صغـير منـك، وليـس فيـك أنـت. حذرهـا أن تُقـدِم على أى فعـل يضرهـا، ثـم قـال: أنـا قبلـت الأمـر الواقـع، قـال لهـا: سـيكون ابنـى، إكراما لك، أخـاف أن تجهضيه فتموتـى وأفتقدك.

ظلـت فـترة الحمـل وهـى مرتعـدة تدعـو الله أن تسـقِطه قبـل أن يولـد، دعـت الله بأن ينـزل ميتًا، فتخـف وطأة حنقهـا وخزيها مـع أنهـا لا تحمـل أى ذنـب، إلا أنهـا كانـت جـسرا مـر عليـه انتقـام جبـان غـادر لا يحمـل أدنـى صفـات الإنسـانية، احترمهـا كإنسـانة مقربـة إلى قلبـه، ظـل طيلـة حملهـا يرعاها ويخشـى عليه مـن أى أذى، ولم يقربهـا قـط فقـد عفهـا مُنـذ أن عـرف مـا جرى لهـا لشـكه أن تكـون قـد حملـت وكان ظنـه فى محلـه، عندمـا أتاها وجـع الوضـع، هرع بهـا إلى الطبيب الـذى أكد أنهـا آلام الوضع، دخلـت غرفـة الكشـف، وقامـت الممرضـة بتجهيزات الـولادة، وعـاد سريعـا إلى البيـت جلـب لهـا بطانية وخِرقـا قديمـة وطعاما ومـالا لحسـاب الطبيـب، بعد الـولادة ومعرفتهـا أن المولـود ولد لم تبـدى فرحـا ولم تتحـدث، بـل صامت عـن الكلام، كـم كانت تتمنـى أن ينـزل جثـة هامـدة خـيرا لهـا مـن أن يظـل مخيـما عليهـا بالخـزى والعـار فى صراخـه أو بكائـه فى حركتـه أو سـكونه فى كل صـوت سـيخرجه سـيظل ملازمهـا وسـتظل ذليلة مكسـورة بـه ومعـه، ولكـن سـيد حملـه بـين ذراعه كـما لـو كان ابنـه، يطلق البسـمات ويهدهـده، احتـارت حميـدة لأمـر سـيد زوجهـا، هـل حقًّـا هـو سـعيد بـه؟ أم أن ضحكـه ولهـوه من فـرط حُزنـه وهمه

وغيظـه، دفـع للطبيـب أجـره، ومنـح الممرضـة أيضا مـالا عندما باركـت له عـلى المولود وسـلامتها، أظهر بهجة وسـعادة وأشـعل الغُرفـة التـى كانـت فى سـكون إلى هدهـدة وضحـك وعبـارات جميلـة قالهـا لحميـدة لتنسـى كل ما يعبـث بها مـن أفكار تهـد فيها مـن الداخـل هـدًّا وتؤرقهـا، وصلـوا إلى البيـت ظلـت صامتـة وخجِلـة، الطفـل يـصرخ مـن الجـوع وهـى تسـتحى أن تُرضعه، ران فى البيـت سـكون، صراخ الطفـل مـن جديـد شـق السـكون قـام بغـلى ينسـون ووضعـه فى بـزازه كان قـد اشـتراها وهـو فى طريقـه إليهـا عندمـا جـاء لها بلـوازم الـولادة، قـال لها: سـيكون أول شـىء ينـزل جوفـه مـن يـدى حتـى يحـن صـدرك وتعطفـى عـلى المسـكين وتُرضعيه.

حمـل الطفل عـلى ذراعـه وضمه إليـه، وطفق يسـقيه المشروب السـاخن، كان الطفـل جوعـان فتجـرع المـشروب سريعـا، قـال لهـا: يـا حميـدة حتـى تسـتمر حياتنـا لابـد أن تنسـى كل شـىء، اعتبرينـى والـده وسـأعتبره ابنـى، لابـد أن نعيـش حياتنـا كـما كانـت فى السـابق.

أخـذت منـه الطفـل وهـى ممتنـة لعطفه وكـرم أخلاقـه، قالت لـه: سـيظل دينـك داخلى محفـورا مـا بقـى لى فى الحياة حيـاة، قال لهـا: لم يصـدر منـك خطـأ ولا عيـب، ولا يجـب أن أحاسـبك أو أعاقبـك عـلى مـا تفعلينـه وانـتِ مغلوبـة عـلى أمـرك، والطفـل لاذنـب له فى شـىء، بـل لم تعيشـى أو تُدركـى هذا الذنـب، قال: سـأربيه وأعتنـى بـه مثـل ابنـى وسـيحمل اسـمى؛ فـلا ذنـب له

ليعيش بلا اسم ينسب إليه أو أب وأنتِ لم يصدر منك تعمد إنجابه بتلك الطريقة، رعايته أصبحت واجبة ومُلزمة منى ومنك، قال لها: عدينى أن ننسى ما مضى، أومأت برأسها بالموافقة، وما إن شبع الطفل من رضاعتها له حتى غط فى نوم عميق، وضعته فى مهده ثم نهضت لتُعد طعامًا للعشاء، ولكنه طلب منها أن تنام لمدة أسبوع على الأقل، وقال لها أنه سيتولى هو أمر تحضير الأكل وتنظيف الشقة، ولكنه سيترك لها الغسيل حالما تقف على قدميها تقوم هى بغسله لأنه يكره غسل الملابس، سألها عن الاسم الذى تُريده له، ولكنها صمتت مرة أخرى، فقال لها: ما رأيك فى اسم مجدى؟

وافقت بهز رأسها بالإيجاب.

ظل سيد يُظهر المودة وحُسن العِشرة ومداعبة الصغير وحمله وجلب ما يحتاج له معه وهو عائد من عمله، وبعد أربعة أشهر من ولادة مجدى اكتشفت حملها الجديد، فسعدت بذلك أيما سعادة، ليس لاشتياقها للإنجاب منه بقدر سعادتها للسعادة التى سيشعر بها سيد، ومرت أيام حملها الجديد ووضعت ولدا جديدا، سموه ماجد، ثم جاءت فاطمة بعد ماجد بعام ونصف العام، ولكن سيد كان يعاملهم بميزان واحد، لم يحدث يوما أن شَعرت فيه بأى تمييز من قِبله لصالح ماجد وفاطمة من دون مجدى.

ألح مجدى على أمه أن تساعده فى أن تُقنع الوالد ليسمح له أن يسافر إلى الصعيد ليرى عائلته وقريته التى لم يصف له الوالد أى شىء عنها وعن بيوتاتها أو شوارعها وغيطانهم فيها، وما إن تذكر وجود غريب هناك، حتى عاد وقال لها: تمهلى بعض الوقت، ثم حثها وقال لها: يجب أن تقفى بجوار مطالبتى لوالدى عندما أثير الموضوع أمامه.

كانت تعلم أن سيد عنيد ويكره البلد بالرغم من اتفاق الجميع هناك على إلغاء كل قوانين العائلة الظالمة وأولها الإبعاد عن البلد الذى كان يُراد به إرضاء ناس على حساب آخرين بلا تروٍّ أو تفكير بحجم الضرر الواقع على من كان يتم إجباره على الرحيل لمدة معينة، وهذا ما رواه غريب للوالد، حتى ولو كان متزوجا وله أسرة كان يسرى عليه الحُكم بلا نظر لأطفال أو زوجة، فكان غنيهم يترك أبناءه مطمئنًا أنه ترك لهم ما يسد حاجتهم من المال، وفقيرهم كانوا يجمعون لأسرته ما يكفى حاجتهم ويسد رمقهم، كل تلك الأفعال جعلت سيدا يبحث ويتمنى الانتماء إلى مكان آخر غير هذا المكان المكتظ بالظلم واللهاث خلف الثأر والتفنن فى إثارة الفتن والقلاقل مما يجعل الحياة فى اضطراب دائم. ومما أوغر صدرهم جميعًا عندما تزوج سيد قبل أن يبعدوه زوجته التى ماتت وهى تضع، جميعهم عارض زواجه من خارج العائلة حسب قانونهم؛ فقد كانوا منغلقين على أنفسهم يحسبون أنفسهم أحسن من ناس القرية الأصليين، كل العائلة غضبت من سيد لتركه بنات

العائلـة وتـزوج رغـما عنهـم من عائلـة أخـرى، أغلبهـم لم يحضر زواجـه، حتـى والـده فضل عـدم الحضـور ليثبـت للآخرين عدم رضـاه لمـا يحـدث مـن ابنـه، إلا أنه مـن داخلـه كان سـعيدا لكون ابنـه أوغـر صدورهـم وتحداهـم، ودعمه والـده ماديًـا فى الخفاء، رفـض الـزواج مـن ابنـة عمـه وكانـت أخت غريـب، كان سـيد قـوى البنيـة شـديد الطبـع ذا حـدة تظهر عنـد وقتها الـضرورى، وعندمـا حـدث ما حـدث، عندمـا قُتل ابن عمـه ونعته بالسـارق الـذى يسـتحق القتـل، أمـن الجميـع عـلى إبعـاده للتأديـب، وهو بقـدر حُزنـه عـلى فـراق أمـه ووالـده وأخوتـه، إلا أنه كان سـعيد بالتحـرر مـن ذلك السـجن.

***

-١٣-

بعد انتهاء تشطيب الشقة جلس الوالد مع مجدى وطلب منه أن يرتب للزفاف وإنهاء شراء باقى كمالياته، كان الوالد يعلم أن أهل سهام أكملوا جهازها ولم ينقصهم شىء إلا تحديد يوم الزفاف، دس الوالد يده فى جيبه وأخرج مظروفا به مال، رفض مجدى أخذه إلا أنه قال له: هذا نصيبك من مكافأة نهاية خدمتى فى العمل. زاد مجدى بهجة وسرورا، يعجز عن شكره أو موافاته بتكريم يناهز ما يفعله من حنو وعطاء لاحدود لهما معه، لم تعارض سهام عندما أبلغها بموعد الزفاف بل قالت: المهم إبلاغ والدى. وكان والدها يعارض الزفاف فى قاعة أفراح بعيدة بعض الشىء عن بيته، ولكن مجدى أقنعه لعدم خلو قاعة قريبة فى ذلك التوقيت، وتم الزفاف وانتقل مجدى لشقته فى الدور العلوى واستقل بحياته، مكثا يومين ثم أخذ سهام وذهبا لقضاء بعض أيام العسل فى الإسكندرية، وهى معشوقته ومدينته المفضلة، كانت سهام رافضة السفر وكانت تفضل البقاء فى بيتها الجديد، ولكنه أقنعها أن تلك

الأيام التى سيذهبان فيها إلى الإسكندرية ستكون هى الذكرى الجميلة فيما بعد، فلو لم يذهب بها الآن من النادر أن يحصل على أجازة كبيرة مثل أجازة الزواج، كان الجو جميلا والسماء صافية على الدوام، وأكتوبر شهر مُسالم ينكسر فيه حر القيظ وليله يحمل جينات الربيع الندى العذب، فى النهار كان ينزل البحر وهى تنتظره بلهفة على الشاطىء، رفضت نزول الماء لأنها أول مرة فى حياتها ترى البحر على الطبيعة، أقنعها أن تنزل معه بملابسها دون أن تتوغل للداخل، أرادها أن تنسجم معه وتعيش لحظات سعيدة، كثير من النساء كانت تنزل بملابسها ولا تتوغل للداخل، ولكنها لم تنزل إلا عندما رأت ذلك بأم عينيها، فى المساء كان يطوف بها لترى المدينة وشوارعها، ثم يدخلان لأى مطعم قريب عندما يشعران بالجوع ليتناولا العشاء، قضيا عشرة أيام جميلة مرت كأنها يومان، قبل رجوعهما بيوم، اشترت هدية لأم مجدى كتذكار منها.

عادا والسعادة تعم قلبيهما، فرحت الأم وابتهج الوالد الذى طلب من أم مجدى أن تُعد الغداء احتفالًا بعودتهما من شهر العسل، أراد الوالد أن يرحب بسهام ويشعِرها بأنها مُرحب بها فى أى وقت أن تجيىء وتغدو إليهم فهى قد أصبحت جزءا من العائلة.

سأل مجدى والده إن كان غريب قد عاد من الصعيد أم لا، الوالد أخبره أنه لا يعرف عنه شيئا، وقد مر ثلاثة أشهر على غيابه، قال مجدى:

- من قبل وفاة خالى ماهر وهو غائب.

سؤاله عن غريب أثار قلاقل واضطرابا لدى الوالد، ولكنه هدأ قلقه واضطرابه عندما قال مجدى إنه لا يستسيغ عمه غريبا، بل ويستاء منه عندما يراه.

أما ماجد فقد عرف أن له عما موجودا بالقرب منهم، ولكنه لم يره حتى الآن، فقد أخبره والده أثناء أيام الحداد على خاله الذى ظهر فجأة، ومات على عجل، كم كان يتمنى أن يرى قريبا لهم يسأل عنهم ويودهم.

انتهت أجازة زواج مجدى وانتظم فى عمله، وأصبح الوقت ذا قيمة بالنسبة له من بعد الزواج، يحسب ساعات العمل ويتلهف لساعة الانصراف، بعض الأيام يدلف لبيت والده يرى أمه ويمكث بعض الوقت وأيام أخرى يصعد مباشرة لشقته، لم يعتد أو يعود غيره على رتم أو عادة ثابتة حتى يكون حُرا فى وقته من تبكير أو تأخر، فلا ينشغل به أحد، كانت سهام طيبة وخلوقة وحسنة الطوية، أحبتها أم مجدى و ارتاح لها الوالد فقد رآها خالية من الخُبث، وقسماتها تشى بخفة ظلها، داومت على جمع ملابس الأم وماجد والوالد وغسلها بدلا من أم مجدى، وتعيدها نظيفة، حاولت أم مجدى أن تمنعها إلا أنها قالت لها: لطالما قلت لى إنى جزء من الأسرة فلا تحرمينى من أداء واجبى نحو الأسرة، كانت الأم تعتقد أن مجدى من حثها على فعل ذلك، إلا أن مجدى أنكر أنه قد طلب منها فعل ذلك، إنما هى تفعل ذلك من تلقاء نفسها.

حتى بعد زواجه لم يكف عن التفكير، العقل يفرض عليه الصمت والتناسى؛ فلا فائدة من التفكير فيما حدث، فمن فعل ذلك شبه مجهول، حتى وإن تعرف عليه لا جدوى من معرفته إلا استحقاره وازدرائه، ولكن ما يشغل مجدى هو ذلك الحَمل الثقيل الذى سببته تلك الفِعلة فى حياة الوالد، حتى الآن هو لم يسمع من أحد منهما تفاصيل، ولا يجرؤ على أن يفتح أمام أحدهما أى كلام فى هذا النحو.

فى العمل سمع أخبار استحواذ منير صاحب مكتب المحاسبة على مكان المكتب بيعًا وشراء، علم أن زوجته من أقنعت والدها بذلك، فقد أراد والدها بيع الشقة التى أسس فيها منير مكتبه كونها فى مكان تجارى وسط القاهره، دفع منير مقدما وسيدفع الباقى على أقساط، هذا الخبر جعل مجدى لا يُعطى الأمان لمنير، فقد يستغنى منير عنه لأنه كان السبب فى رفض سهام له عندما عادت لمجدى، فهو بالطبع شَعُر بالطعن فى كرامته بعد رفضه، وقد حصل وقتئذ على موافقة مبدئية، وصمت وقتئذ خوفا من مجدى أن يبلغ زوجته بذلك فيفقد مكان مكتبه، أما الآن فقد صار أمر المكتب له فقط، وصار له مطلق الحرية فى التصرف فيه، لذلك فضل مجدى أن يبحث عن عمل آخر قبل أن يطرده نبيل، ولكنه فضل أن يصبر ويتروى حتى يرى ما يضمره نحوه من ترتيب.

ولكن كانت إرهاصات ليس إلا، كان ماجد يشكو دائما من ألم فى كِليته، وكل التحاليل كانت تُظهر الضعف وعدم عملها

بشكل جيد، وكان الوالد يخشى أن يكون مصير كليته متجها نحو الفشل الكلوى، كل الأدوية كانت مسكنات لاتُجدى، عندما بدأ علاجه مع أحد الأطباء نصحهم بمحاولة تجهيز أنفسهم ماديا لزراعة كلية له، ولكنهم غيروا هذ الطبيب وذهبوا لآخر ليس لأنه ليس جيدا، بل تشاءموا منه أو هربوا من الواقع، فتلك العمليه تحتاج مبالغ طائلة، وكان آخر مرة ذهب معه والده للطبيب قد فاجأهم بالواقع المرير الذى هربوا منه قبل ذلك، الطبيب قال لهم: لابد أن يذهب لمعهد غسيل كِلى فحالته متأخرة.

بمجرد أن عاد غريب من الصعيد اتصل صبى المقهى وأعلم مجدى بجلوس الرجل مع والده فى المقهى، جاءت فرصة مجدى ليحقق ما يدبر له.

عاد مجدى من عمله وألقى نظرة على المقهى وجدهما ما زالا جالسين يتحدثان، لم يُشعرهما مجدى بوجوده وقد انسحب بهدوء، فى المساء انتظر مجدى عودة والده من الزاوية، ولما عاد والده وجلس فتح مجدى موضوع الميراث وحث والده على العودة للبلد ليحصل على ميراثه مهما قل أو كثُر، والده مازال مُصرا على موقفه ولكنه ذكره بحاجتهم للمال من أجل إنقاذ حياة ماجد، قال الوالد: أنا أخذت عهدا على نفسى أنى لا ولن أعود إلى البلد مرة أخرى، قال مجدى: إذن اتركنى أذهب أنا ولكن لو أنك تثق بى فلتقم بعمل توكيل عام لى، يحمى ويدعم موقفى من جملة قد تتردد وهى أنك لا تملك شيئا

هنـا، أو عندمـا يأتى صاحـب الأرض سيحصل عليهـا لأننى لا أملـك صفـة، صمت الوالـد صمت تفكير ومشـاورة مـع ذاته ثم قـال: سـأقوم بعمـل توكيـل لك. ثـم أوصـاه قائلا: سـتذهب إلى هنـاك، لا تسـأل عـن أرض أو مـيراث، أولا تعرف عـلى أعمامك وأبنائهـم أولا، إذا أثـار أحدهـم موضـوع الإرث سـيوفر عليـك جهـد وحـرج المطالبـة، إذا يئسـت ولم يتكلم أحـد فلتفاتح عمك منصور بـكل مـا تُريد.

طلـب مجدى أسـبوع أجازة، ولكـن منير رفض لحاجـة العمل لـه، عندمـا رفـض منـير ظـن أن منـير يتعنـت ليجـبره عـلى تـرك العمـل بطريـق غـير مباشر، فكتـب مجدى اسـتقالته وأصر عـلى الذهـاب كما خطـط، قرأ منـير الاسـتقاله فمزقها ونظـر إلى مجدى بامتعـاض وقـال لـه: لا تغـب أكثـر من أسـبوع أو عـشرة أيام.

جهـزت سـهام حقيبـة سـفره ووضعـت فيهـا ملابـس وغيـارات داخليـة ووضعـت فرشـاة أسـنان جديـدة ومعجـون أسـنان وجـوارب جديـده، أول مـرة سـيبعد عنهـا، ليسـت حزينة لتفهمهـا ضرورة سـفره، وبالذات بعـد موافقة الوالـد التى كانت مسـتعصية، ولـولا مـرض ماجـد ما سـمح لأحـد أن يفكـر مجرد التفكـير بالبلـد، وصـف والـده لـه طريـق الوصـول إلى القريـة بعدمـا ينـزل مـن القطار، ووصـف له القريـة وشـوارعها وبيوت العائلـة المتلاصقـة بالتـوالى لا يوجـد بينهـم أحـد مـن خـارج العائلـة.

تحـرك القطـار مـن محطـة مـصر، كان أول مـرة يتجـه إلى الجنـوب، عندمـا كان يسـافر إلى الإسـكندرية كانـت تـتراص لافتـات المراكز وأسـماء المحطـات، وكان يعـرف المحطـة القادمة أثنـاء توقـف القطـار فى محطة مـا. فمن طـول ما اتجه نحو الشـمال حفـظ أغلـب أسـماء المُدن وأسـماء بعـض الأحيـاء المشـهورة من خـلال اللافتـات، أمـا الآن فهو متجه نحـو الجنـوب، متجه نحو المجهـول، نحـو الحـر القائـظ إلا أن الطقـس مقبـول فى مـارس. ولكـن الطبـع الحامـى لا ينقطع صيفًـا أو شـتاء، والعـادات التى لاتقبـل التنـازلات.

وصـل القطار عند الأصيل، سـار عـلى وصف والده، اسـتقل سـيارة وصلـت بـه إلى القرية، فضـل أن تقف السـياره بعيـدًا عن ديـار العائلة، أن يسـأل عن ديـار العائلة حتى يصـل مترجلا خيرًا مـن أن يفاجأهـم بسـيارة تقف أمامهم وهو داخلها، سـأل شـاب عـن بيت الحـاج منصور أو الحـاج كارم، فترجل معـه حتى وصل الشـارع وأشـار إلى البيتين، قـال: هذا بيت الحـاج منصور.

كانـت بوابـة البيـت مفتوحـة، فخـرج إليـه شـاب عمـره الخامسـة والعـشرون ربيعـا، سـأل عـن الحـاج منصور فقـال له: بالداخـل، قـال لـه :انـا ابـن أخيه سـيد، فوجـئ الشـاب الذى لم يخبره عن اسـمه بعـد، فقـال له :عمـى سـيد، تعجب مجـدى من فـرط المفاجـأة والذهول الـذى انتاب الشـاب وسـأله: وانت ابن مـن؟ قـال: أنـا خالـد، خالـد منصـور. مد مجـدى يـده وصافحه ثـم عانقـه وقـال: أنـت ابـن عمـى؟ قـال خالـد: مرحبـا بك.

ترجل بـه من الخـارج ثـم فتح بـاب دخـلا معًا، وجـد مجدى كنبـا متراصـا بطـول وعـرض المـكان الفسـيح التـى تتوسـطه منضـدة سـفرة كبـيرة، عندمـا لاحـظ خالـد تعجـب مجـدى مـن المـكان قـال له: هنـا المنـدرة، تخص جميـع العائلـة تقام فيهـا ولائم الأفـراح ويقـام فيه العـزاء، تركـه فى المنـدرة ودخل ليُخـبر والده الـذى جـاء مـن فـوره بوجـه طلِـق باسـم بفطـرة حاتميـة، عانـق الحـاج منصـور ابـن أخيـه مجدى ورحـب بـه وأشـعره بفيض من السـعاده لرؤيتـه، ثـم سـأله عـن والـده وعن سـبب عـدم عودته حتـى الآن، دخـل أبنـاء الحـاج منصـور ورحبـوا بـه، وطفلـين صغيريــن يدلفــان إلى الداخــل ينظـران إلى مجـدى ويصـدران ضحـكات بريئـة ثـم يختفيـان، إنهـما حفيـدا الحـاج منصـور، وفى تتابـع دخـل مـن بـاب المنـدرة، والمطـل عـلى الشـارع، عـماه الآخـران، قـال مجـدى إن والـده لـن يعـود مـره أخـرى، وقـال:

– لقـد حاولـت معـه مـرارا أن يأتى زائـرا ثم يعـود ولكنه قال إنـه عاهد نفسـه ألا يرجـع إلى هنا مـره أخرى.

كلهـم صمتـوا، فقـد صمتـوا يـوم حُكـم عليـه بالرحيـل، ولم ينبـس أحدهـم ببنـت شـفة، بـل ذهبـوا معـه وأوصلـوا إلى محطة القطـار وكأنه مغـادر إلى رحلـة، ولم يؤكد عليه أحدهم أن يرسـل عنوانـا لـه عندما يسـتقر، وكأنهم برحيله اشـتموا أنفاسـهم، وهو الوحيـد فيهـم قـوى البنيـة مقارنـة بهـم، وإن كان ذلـك لا يُقلـل مـن صحتهـم الجيـدة، ولكنـه كان أبرزهـم قـوة وتكويـن بنيـان، ومـع ذلـك كان أطيبهـم وأحسـنهم خُلقـا وأكثرهـم مواظبة على

الصلاة فى وقتها، ولم يستحِ يوما فى قول الحق ولو كان على أخوته أو نفسه، كان داخلهم حسد وغيرة منه لأنه كان هو من يلفت الأنظار من دونهم، قال كارم:

- لعل والدك صحته تآكلت.

قال مجدى: والدى بخير يا عمى، بل ويهبط درج البيت كل يوم خمس مرات ويصعد، فصلاته دائمًا جماعة فى زاوية بجوار البيت.

فقال كارم: علمنا منذ زمن أن والدك يشرب ويسكر ويتعاطى المخدرات و... وكان ذلك سبب عدم ذهابنا إليه.

قال مجدى: لاتؤاخذنى فيما سأقول يا عمى حتى لو كان يفعل كل ذلك، كان من الأولى أن تلتفوا حوله وتمنعوه، لا لتتركوه يفنى حياته وأنتم على علم، ولكن الحمد لله والدى لم يدخن سيجارة فى كل حياتى التى عشتها بجواره.

قال كارم: شىء غريب!

قال منصور: عمك غريب يزور والدك.

قال مجدى: لم نتعرف أنا وأخى على عمى غريب إلا من أشهر قريبة.

ازداد منصور وكارم وأخوهم أدهم تعجبًا من قول مجدى وتبادلوا النظرات لبعضهم البعض، قد كان غريب نقطة الوصل بينهم وبين سيد، وهو من أعلمه بوفاة أبيهم وبمرض

أمهـم، وقتهـا عـاد إلى البلـد فى جنـح الليـل ولم يصـل إلا بعدمـا فارقـت الحيـاة وخـرج مـن البلـد، وكان الظـلام مـا يـزال قائما.

حـدس مجـدى أنـه يوجـد مـن نقـل لهـم صـورة سـيئة عـن والـده، ولا يوجـد غـير غريـب، ولكـن مـاذا يسـتفيد؟!

دخـل خالـد المنـدرة وأخـبر والـده أن العشـاء جاهـز، فهـم كارم وأدهـم بالانـصراف، ولكن منصور أقسـم يمينـا أن يتناولوا العشـاء جميعـا، لاح فى خاطـر مجـدى بارقـة أمل حين وجـد عمه منصـور بـه صفـة الكـرم، وتيـسر فى داخلـه حـل تلـك المعضلة، وهـى أن يبـدأ الكلام عـن المـيراث أولا وهو المهـم، ولكنه ارتأى أنـه لم يكمـل سـاعتين، وهو فى طـور الترحيـب به، جلسـوا جميعا عـلى سُـفرة المنـدرة ليتناولوا العشـاء، كان العشـاء مكونـا من أرز وباميـة وسـلطة، وفى وسـط السـفرة سـلة خيـزران ممتلئـة تفاحـا وبرتقـالا وموزا.

قـال أدهـم: نبحـث لـك عـن عروسـة فى العائلـة، قـد يكـون ذلـك سـببا يعيـد والـدك إلينا.

قـال مجـدى: شرف لى أن أعـود لجـذورى، ولكـن للأسـف تزوجـت منـذ خمسـة أشـهر.

ضحـك مجـدى وضحكـوا جميعـا، ولكنـه اسـتغل موضـوع الـزواج ليفتـح الطريـق أمـام فتـح بـاب المـيراث فيـما بعـد، وقد يصـل إليهـم مـا يصبـو إليـه هـو، ثـم أردف قائـلا:

- مـن الممكـن أن ينـال هـذا الـشرف ماجـد، ولكـن بعـد أن يشفى .

قال منصور: خير بأى شىء معلول؟

قـال مجـدى: يعانى من مـرض الكلى ولابـد مـن زرع كلية له، فكليتـه قاربت على التوقف، والآن من سـىء لأسـوأ.

طفـت مسـحة حُـزن وتأثـر على قسـمات الجميـع وقـال كارم: كـم عمره؟

قال مجدى: ثلاثة وعشرون.

حـاول منصـور أن يخرجهـم مـن جـو الحُـزن فقـال: تـشرب شـاى بعـد الأكل أم قهـوة؟

قال مجدى: شاى، القهوه أشربها فى المكتب فقط.

قال أدهم: مكتب؟، أنت تعمل محاميا؟

قال مجدى: أعمل محاسبا فى مكتب محاسبة كبير.

قال كارم: تريد أن تقول إنك لاتعمل صبى جزار؟!

ضحـك مجـدى وكـرر كلمـة صبـى جـزار، بـان الأمـر جليًـا أمـام مجـدى أن غريـب أعطاهم صورة سـيئة عـن والـده وعائلته بصفـة عامـة، ووضـح باليقـين كذبـه أمامهـم هُنا.

انتهـوا مـن العشـاء وجـاء خالـد بالشـاى، ثـم طلـب منصور مـن خالـد أن يصطحب مجـدى ويعرفه على بيـوت العائلة وأقاربه

فى العائلـة وشـباب العائلـة، فطـن مجـدى إلى أن منصـور يريد أن ينفـرد بأخويه كارم وأدهـم، ترجلا فى الشـارع، البيوت متلاصقة وإضاءة الشـوارع شـاحبة، واجهات البيوت قديمة وكالحة وغبار كثيـف يكسـو دهـان الحوائط فجعـل لـون النـور الفوسـفورى يعكـس عـلى الحوائـط أشـكال لـون الصحـراء، كان يشـير إلى كل بيـت يمـر مـن أمامـه ويعرفـه بالقرابة التـى تربطـه بصاحبه، فى وقـت النـوم أراد مجـدى أن ينـام فى المنـدرة، ولكـن منصـور قـال لـه: المنـدرة للضيـف أمـا أنـت فمثل ابنـى وصاحـب بيت.

أصر منصـورأن ينـام معهـم فى البيـت بأحـد الغُـرف الخاليـة، قـام عـلى خدمتـه خالـد حتـى اطمـأن أنـه نـام، اسـتيقظ عـلى أصـوات لم تألفهـا أذنــه كاك كاك كاك. أصـوات الأوز، ثـم تداخـل ثغـاء الغنـم مع خـوار البقـرة وصوت نسـوة تنهـر البقرة كـى تقـف ثابتـة، تخيـل أحد النسـاء تحلـب ضرعهـا فسـال لعابه واشـتهى الحليـب الطـازج ليقارنـه بحليـب أم عباس التـى تجلبه لهـم فى البيـت بالقاهـرة كل صبـاح، كان محتقنا بالمـاء ولكن خالد جـاء لينقـذه من ذلـك الاحتقـان، اعتقـد أن خالد قام مـن أجله، ولكـن خالـد قـال لـه إنـه موعد يقظـة لـكل البيـت بأمـر والده، لانـوم بعـد صـلاة الفجر.

قال مجدى: ماذا تفعلون فى كل هذا الوقت؟!

قـال خالـد: النسـاء تنظـف الزريبـة وترفـع الـروث من تحت المواشـى وتنظـف البيـت وتمسـحه وتُجهـز الإفطـار وتُلبِّـس زوجتـى الأولاد وتجهزهـم للذهـاب إلى المدرسـة، أمـا نحن نقوم

بعلف المواشى ونستعد بعد الإفطار للذهاب إلى الغيط قبل طلوع الشمس.

قام خالد بتجهيز الحمام لمجدى حيث وضع له بستلة مملوءة بالماء الساخن، فليس لديهم سخان بأمر من الوالد لخوفه من أخطار السخان سواء كان كهرباء أو غاز، كما ترسب فى يقينه ذلك الخطر المتوقع. بعد تناول مجدى الإفطار عرض خالد عليه الذهاب معه إلى الغيط إلا أن مجدى فضل الاعتذار، كان ينوى ترسيخ علاقته بعمه منصور؛ فهو محور مهم فى الحديث معه عما جاء من أجله، ذهب مجدى إلى المندرة وجلس فيها يتفحص هاتفه، كانت معه على الخاص فى رسائل الماسنجر زوجته سهام، طمأنها علي نفسه واطمأن هو على الوالد وامه، لم يطِل معها التراسل ولكن أخبرها أنه سيخبرها بأى جديد لتنقله لوالده، جاء عمه منصور بعد أن حياه بالسلام، جلس معه فى المندرة، علا صوته بطلب إعداد الشاى، رحب منصور بابن أخيه، وبعد أن احتسيا الشاى أخرج منصور من جيبه نوتة كبيرة، ثم استدعاه ليجلس بجواره على الكنبة التى يقتعدها، وقال له بعد أن فتح مجدى النوتة وبدأ يقرأ: حساب إيجار أرض سيد سنة ١٩٩٧ وهو ٣٥٠٠ جنيه مصرى فقط لاغير، نظر للصفحة المقابلة: حساب إيجار أرض سيد سنة ١٩٩٨ وهو ٣٥٠٠ جنيه مصرى فقط، قلب الصفحة: حساب إيجار أرض سيد سنة ١٩٩٩ وهو ٣٨٠٠ جنيه مصرى فقط لاغير، كلما قرأ مجدى ووجد تصاعدا فى أرقام مبالغ

الإيجار زاد أمله فى عمل زراعة لكلية ماجد وتبقى الأرض بلا بيع، كانت حسابات الأرض حتى عام مضى، كان الإيجار قد وصل لمبلغ كبير فى العام الواحد، سأل مجدى عمه: كم نصيب والدى من الأرض؟ قال منصور: ثلاثة أفدنة ونصف. وأردف منصور: ونصيبه من البيوت مئة وعشرون مترا مسورة بطوب لبن وموضوع بها التبن فى حال أخذتموها سوف أخليها من التبن، وزاد مجدى عجبًا من غريب الذى قال لوالده: إن المتبقى من الأرض قراريط، مما جعل الوالد يصرف نظر عن المطالبة بإرثه، وفوجئ مجدى بعد قول عمه منصور إن تلك المبالغ التى وصلت والدك منى، قال مجدى:

وصلت والدى؟!، والدى لم يصله أى مبلغ كبير أو صغير وإلا لأبلغنا.

قال منصور: كل مليم أرسلته لوالدك مع غريب مدون هنا .

تضرج وجه مجدى وقال: غريب؟!

فى هالة من الغضب أخرج مجدى هاتفه وأرسل رسالة لسهام وقال لها: اذهبى بالهاتف وأعطه لوالدى واعرضى عليه الرسالة التى سأكتبها الآن.

كتب مجدى: «نصيبك من الميراث فى الأرض ثلاثة أفدنة ونصف كل إيجار أرضك أرسله عمى منصور لك عن طريق عمى غريب عاما بعد عام، منذ عام وفاة جدى، هل عمى

غريب أوصل لك بالفعل كل الإيجار منذ مات جدى حتى الآن. «قرأ مجدى رسالة والده التى دونتها سهام «لم يصلنى مليم أحمر من غريب».

قرأ مجدى الرساله لعمه غريب الذى بدأ يضرب كفًا على كف ويقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم غمغم قائلا :غريب يلعب بنا جميعًا.

ثم بدأ يقص على مجدى كل ما قاله غريب عن والده بأنه منذ أن ترك القرية وهو منحرف، يتعاطى المخدرات ويعاقر الخمر وحياته صارت لهاثا خلف النساء فى الحانات والبارات، لاعمل له إلا عندما يخلص ما معه من مال ثم يبحث عن عمل من جديد، وما إن بدأ إيجار الأرض يأتيه بدأ ينصلح حاله وتزوج وكون أسرة، ولكنه ظل يصرف ماله على الخمر والمخدرات، ذهل مجدى الذى قال إن والده لم يدخن من الأساس حتى يتعاطى مخدرات، ولم يترك فرضا حتى يلهث خلف النساء. وأكمل منصور قائلا: لذلك لم نبحث عنه حتى لا يأخذ نصيبه ويبعثره، حتى لو جاء ليأخذ أرضه وهو على هذا الوصف الذى نقله عنه غريب كنت سأمنعه حقه لأنى كنت أخاف عليه من نفسه، وكنا نعاير بسبب والدك ونتنكر له بناء على كلام غريب عنه.

قال مجدى: لقد نقل عنكم صورة مغايرة لما رأيته حتى تستمر قطيعتنا التى استفاد هو منها ظنًا منه أن الأمور سيسير كما يتمنى هو.

قال منصور: وماذا قال عنا؟

قال مجدى: لقد قال لوالدى إن الثأر والمشاكل قد صفى وقلص الأرض لدرجة أن واحدكم لم يرث إلا قراريط، وهذا ما جعل والدى يصرف نظره عن إرثه، وكان ينتوى تركه لكم ما دام قليلا، كان يريد أن يتركه ليساعدكم به لأن مصدر الدخل هنا ضعيف.

قال منصور: منذ أن رحل والدك وقمنا بتصفية كل مشاكلنا لأن جدك كان حزينا على رحيل والدك، وانصرف عن الجميع واعتزل الجميع حتى حققوا له ما أراد، وهو قبول الصُلح مع من قتل ابن عمك الذى بسببه رحل والدك.

***

-١٤-

اختفـى غريـب بمجـرد أن علـم أن مجـدى قـد سـافر إلى الصعيـد، وأن القطيعة سـتزول وسـيتجدد الود بين سـيد وأخوته مـن جديد، انكشـف خبثـه وطمعه وجـوره واسـتحواذه على مال الغـير، خـان مـن يدعـى أنـه صديقـه، اسـتفاد غريـب مـن تلك القطيعـة ولعـب عـلى اسـتمراريتها عندمـا زور الحقائـق وشـوه كلا منهـم أمـام الآخـر فولـد النفـور بينهـم وتزايـدت الكراهية، حيـث جعـل أخـوة سـيد ينفـرون منه بسـبب مـا قالـه غريب لهم عـن سـلوكه غير السـوى كما افـترى عليـه، أما سـيد فـكان يكره المـكان لمـا يحملـه بـين جنباته مـن كُـره وتدبـير ممنهج لأخـذ الثأر والانتقـام وتعـالى غنيهـم على فقـيره واحتقـره، عندما ذهـب إليه سـيد فى بيتـه لم يجـده بـل قـد رهـن البيـت ولا يعـرف أحـد أيـن كانـت وجهتـه، لم يُصـدم سـيد بل عـرف خيانتـه منذ زمـن، كان يعتقـد أن سـيد عـن خيانته غافـل، ولكـن سـيدا كان يتعايش مع تلـك القرابـة المفروضـة عليه فـكان يوهمـه بصداقته، ولكن سـيد كان يعلـم يقينـا أنـه لا يصلـح كصاحـب ولا صديـق، لذلك ظل

طـوال عمره لا يسـتضيفه فى البيـت، بل كان يقابلـه فى المقهى، ولم يـأتِ إليـه البيـت مـن بعد اختفـاء ماهر شـقيق حميدة زوجة سـيد إلا مـرة واحـدة، وهـى التى مَرِض فيها سـيد، سـيد لم يكشـف له علمـه بـما فعـل لسـبب أن زوجتـه لم تتعـرف عليـه حيـث باغتها متخفيًـا ولم يكشـفه سـيد إلا عندما قالـت حميدة إن مـن هاجمها لم تـر منـه إلا ذراعـه الـذى به أثـار جـرح قديم وأثـر الغـرز، والتى كشـف عنهـا الكُـم الواسـع الذى كشـف الـذراع بينما هـى تقاوم تكميمـه لهـا، وفعـل فعلتـه الدنيئـة وهـى شـبه ميتة، تجاهل سـيد كل مـا فعـل حتـى لا تنكسر عينـه أمامه، ليـس عجـزًا ولا ضعفا منـه؛ فقد كان يسـتطيع سـيد قتلـه ولكن وجده أتفه مـن أن يقضى بسـببه سـاعه واحدة خلـف القضبان، كان سـيد يثـق فى عدل الله الـذى سـيقتص منـه وكان أكـبر قصـاص أنـه لم ينصلـح حالـه، ظـل غريـب يعيـش بوجهـين وجـه المسـتقيم فى العلن، والفاسـد الخبيـث الـذى لا يتـورع ولا يخجـل من منكـر مـا دام متخفيا عن الأنظـار، فبالرغـم مـن فعلته تلـك كان دافعـه الانتقام مـن ماهر شـقيق زوجتـه لأنـه أهان كرامته ومسـح بـه أرض شـقة الراقصة التـى كان ينـوى قضاء ليلـه حمراء معهـا، وقتئذ وصـل بيته مخضبا بالدمـاء، ولـو جـاء لسـيد وحكـى لـه مـا حدث لـكان لماهـر مع سـيد شـأن آخـر ولكسر شـوكته وجـاء به صاغـرًا يقدم الأسـف والاعتـذار، ولكنـه تعـالى وتكبر أن يظهـر أنه الضعيـف المغلوب عـلى أمره.

لقد ضحك سيد بصوت عالٍ، ضحك من سُخرية ماحدث، لم يضحك من خداع سيد، بل ضحك من طيبة قلبه عندما كان يرى فى داخله أن الزمن قد أصلح غريب، عاد إليه مرة أخرى فى المساء لم يجده وسأل عنه الجيران، ولكنهم لم يفيدوه ولا يعلمون عنه شيئا، سأل صاحب ورشة تصليح السيارات، قال: لا أعرف عنه شيئا، إلا انه سار فى عجلة، وقال: إن سأل عنى أحد أخبره أنى رهنت البيت، وغالبا هو لم يرهنه.

***

-١٥-

فى الصعيد مازال مجدى حائرا، لقد فاتح عمه لحل مشكلة ماجد وتوفير مبلغ عملية زراعة الكلية أولا، قال مجدى لعمه منصور: أنا أتحدث بالنيابة عن والدى، ودس يده فى جيبه وأخرج مظروفا ومده لعمه وقال: هذا توكيل عام من والدى باسمى يعطينى حُرية التصرف.

قال عمه منصور: أرض والدك موزعة بيننا، وكل منا يدفع ما عليه من إيجار بشكل سنوى، الفلوس نهبها غريب وأنكرها من والدك هذا موضوع سيُحل فى جلسه عرب؛ لوالدك عندى ثمانية وعشرون قيراطا، ومثلهم عند كارم وأدهم الآن فى مقدورنا كل واحد سيدفع ثمن أربعة قراريط، بمعنى مجمل ثمن نصف فدان أعتقد أنه كاف لأداء العملية وأن احتجت كمالة إذا لم تكفِ الفلوس التكاليف سنتصرف لك.

وجد مجدى أن كلام عمه منطقى، فأعطى عمه الموافقة على ذلك الاقتراح، ولكن مجدى أثار ما فعله عمه غريب،

تسرب خبر ما فعله غريب لحاتم ابن غريب، كان لغريب مشاكل متعددة متعلقه بالماديات مع الناس فى البلد، كان حاتم فظا سليط اللسان كوالده غريب، جاء بدلا من أن يرحب بمجدى جاء ليوبخه لأنه يتهم والده أنه خان الأمانة، علا صوت منصور وقال له: لا تشتم أى ضيف أيا كان فى بيتى، وذكره أن مجدى ابن عمه وأمره أن ينصرف حتى يهدأ، انصاع حاتم ابن غريب وانصرف، منصور لايعلم من أخبره إلا أنه تذكر أن زوجة ابنه خالد تكن ابنة غريب، وضع احتمالا أنها من أخبرته بما دار بينهم من حوار أو أن خالدا زوجها قد قص عليها كل شىء، وقد يكون أنبها بفعلة والدها مما دفعها لنقل ما دار من حديث لأخيها، وهما فى جلستهما اللتين توصلا فيها لإتمام بيع نصف فدان جاء خبر مجىء غريب لبيته مما فاجأ مجدى وشعر بخطر المواجهة مع هذا الرجل اللئيم، كان يُفضل أن تكون تلك المواجهة مع والده، قال منصور: نتركه ونرسل له فى الغد، وقد يُخبره حاتم ويأتى، تناولوا العشاء، فى المندرة تلك الليلة أعد العشاء أدهم؛ فالمندرة مشتركة لكل العائلة لذلك لا قيد على جلب الطعام من أى بيت فى العائلة إلى المندرة فهى بمثابة الأرض المحايدة ونقطة الوصل بين الجميع فى العائلة، وما إن أنتهوا من تناول العشاء حتى جاء غريب، صافح منصور وأدهم وخالد ثم عانق مجدى وقال له: مرحبًا نورت البلد يا ابن الغالى.

مجـدى ممتعـض منـه ولكنـه آثـر الصمـت والترحيـب بـكلام مجبـور عـلى التلفـظ بـه مـن بـاب اللياقة.

قـال لـه منصـور: حاتـم حكـى لـك شـىء؟ هـل تـرضى أن يأتـى حاتـم ويحـاول الاعتـداء عـلى ابـن أخـى فى بيتـى؟

قال غريب: وحاتم ابن أخيك أيضا.

وضحـك بمكـر وران عـلى المندرة صمـت مفاجـىء ثم شـق الصمـت منصـور موجهًـا الحديـث إلى غريـب وسـأله: لمـا لم تقـم بتوصيـل فلـوس الإيجار لسـيد، منـذ سـنة ٩٧ وأنـا أعطيك الإيجـار سـنويا حتـى السـنة الماضيـة؟!

قـال غريـب: وأنـا لا أنكر ذلـك، كل مليم أخذتـه منك مدون فى دفـتر عندى.

قـال مجدى: وماذا اسـتفاد والـدى من التدويـن فى الدفتر دون أن تصـل لـه الفلـوس فى موعدهـا، قرابـه عشريـن عامـا وانـت تأخـذ الإيجـار، ومـع ذلـك كنـت تتقابـل مـع والـدى وأنكـرت عنـه كل تلـك المـدة مالـه الـذى هـو أمانـة معـك، هـل هـذا من الأمانـه فى شـىء؟!

قـال غريـب: فلوس والـدك موجـوده بالتمام والكـمال، ولكن يصـبر شـهر واحد أجمعهـا له.

قـال مجـدى: الفلـوس مـن عشريـن سـنة حتـى الآن يعنـى قيمتهـا انتهـت.

قـال غريـب: مبلـغ كبـير صعـب فى بيت أحـد لابد مـن مهلة شـهر حتـى أجمعه.

غـيَّر الـكلام ليشـوش عـلى مجـدى، رن جـرس هاتـف مجدى كانـت زوجتـه، طلبـت منـه العـودة فى الحـال فقـد تم نُقـل حاتم إلى المستشـفى وحالتـه خطـرة، اسـتأذن مجـدى عمه للسـفر، كان الوقـت ليـلا فطلـب منـه الانتظـار للصبـاح، ولكنـه قـال لعمه: حتـى تجهـزوا ثمـن مـا اتفقنـا عليـه سـأعود مـره أخـرى لأتمام البيـع، ولكـن عمـه قال لـه إنه سـيأتى ليطمئـن على ماجـد ويرى والـده، لم يتفاجـأ مجدى مـن ذلك فقـد تأكدوا من كـذب غريب، ولا شـئ الآن يعيـق وصالهـم، قـام خالـد بتوصيـل مجـدى حتـى محطـة القطار، وهمـا فى الطريـق أعطاه مبلغـا ماليا، وقـال له: هذا مبلـغ كبير فقـد تحتاج له فى المستشـفى مـع أخيك وسـيخصم من ثمن الأرض.

سَـعِد مجـدى بذلـك فقـد نفـدت كل ماديـات كان محتفظا بها، وقد أجهـزت عليهـا تكاليـف الزواج.

وصـل مجدى فى الصبـاح، صافح زوجتـه وأعلمهـا بعودته ثم نـزل للوالـد فى الـدور السـفلى، وبعد أن أطلـع الوالد عـلى ما دار معـه فى الصعيـد ذهـب إلى ماجـد بالمستشـفى حيث تـم حجزه فى العنايـة المركـزة، حاول أن يكـون هو المتـبرع لإسراع أنقاذه ولكن الأنسـجة لم تتوافـق، بحـث عـن متـبرع واهتـدى، مبلـغ العملية المطلـوب موجـود معـه ولكـن مبلـغ المتبرع كبـير، وسـيضطر إلى عودتـه للصعيـد حتـى لو عـاد أعمامه أمامهـم وقت حتـى يدبروا

ثمـن الأرض، لجـأ إلى زوج أختـه، كان يعلـم أنه ثـرى وصاحب رصيـد بنكـى كبير، قص لـه ما حدث لماجـد وأن العمليـة متوقفة عـلى مبلـغ مالى يخص المتـبرع وأخبره عـن انتظار بيـع الأرض، لم يتـوانَ حامـد زوج أختـه وكتـب لـه شـيكا مقبـول الدفـع بالمبلغ الـذى طلبـه، كان مجـدى قـد جهـز إيصـال أمانـة بالمبلـغ موقعـا منـه، أخـذ حامـد منـه الإيصـال وقـام بتمزيقـه ثـم أوصى مجدى ألا يُخـبر فاطمـة بـأى شـىء بخصـوص هـذا المبلـغ، كان حامـد يحـرص ألا يسـبب لهـا أى حرج.

تواصـل مجدى مـع المتـبرع ولحسـن حظ ماجـد كانـت درجة التوافـق للانسـجه تتخطـى ٨٨٪ وهذه نسـبة جيدة توحـى بتقبل الجسـم للكليـة الجديـدة، وكان المتـبرع صاحب بنيـة قوية وصحة جيـدة، تـم التجهيـز للعمليـة وانتهـى إجـراء إخـراج الكليـة من المتـبرع، وجـاء وقـت إجـراء جراحـة زرعهـا فى جسـم ماجـد، مكثـت الجراحـة قرابة سـت سـاعات حتى أن مجدى قـد يئس من نجـاح الجراحـة، وانتهـى الطبيـب مـن الجراحـة، وتم فتـح باب عرفـة العمليـات وخرج الأطبـاء يتصببـون عرقا، حمـدوا الله على نجـاح الجراحـة، الطبيـب المبـاشر لحالـة ماجـد انـزوى بمجدى وأعلمـه أن الكليـة الجديـدة جسـم غريـب ومعـرض لأن يلفظـه الجهـاز المناعـى ولا يقبلـه، فكتـب لـه أدوية لإخماد الجهـاز المناعى وأوصـاه أن يسـتمر على تعاطـى ماجد لتلـك الأدوية بصفة شـبه مسـتمرة حتـى يبـدو الامـر فيـما بعـد شـبه عـادى وحتـى تندمج الكِليـة الجديـدة مع الجسـم وتعمـل بصـورة عادية.

استمر ماجد عشرة أيام تحت الملاحظة، نزف الجرح نزيفا خارجيا، وتم تداركه ولكنه بدأ يظهر عليه بوادر لانسجام الكلية الجديدة ولكن أدوية إخماد الجهاز المناعى كان يتناولها باستمرار، لم تفارقه الأم وكان الوالد يذهب ويجىء ويجلب لهما احتياجاتهما من الخارج، فقد عاد مجدى للعمل الذى كان يخرج منه متجها إلى المستشفى ثم يعود للبيت ليلا، بشرته سهام بحدوث العمل، ولكن الخبر لن يجد مجال للاحتفال به نظرًا لمرض ماجد.

فى فترة ما بعد الجراحة لم تفارق الأم ماجدا، وكان الوالد يروح ويجىء عليهم جالبا لهم كل ما يحتاجونه من خارج المستشفى، أما مجدى فكان يعود من العمل إلى بيته يرى سهام ويطمئن عليها ثم يذهب إلى ماجد فى المستشفى، يمكث معه حتى الليل وتذهب أمه بمجرد مجيئه إلى البيت لإعداد طعام الوالد وتغيير ملابسها ثم تعود إلى المستشفى لملازمة ماجد ليعود مجدى إلى بيته لينام حيث يذهب إلى عمله مبكرًا.

مرت مرحلة الخطر وبدأ الجرح موضع العملية يلتئم، وتقرر خروج ماجد وعودته لإكمال تمريضه فى البيت.

فى اليوم الثانى لعودة ماجد، جاء أخوة سيد جميعا ومعهم غريب، لم يتفاجأ سيد من مجىء غريب، فهو يعرف أنه جلف بارد جاء معهم متمسحا بهم ليفوت على سيد فيض الغضب الذى كان يحبسه داخله ليوجهه إليه، فى بادىء دخولهم البيت تسمر سيد مكانه، لم يكن فى حُسبانه أنهم سيأتون جميعًا فى وقت

واحد، ران على البيت صمت للحظات قبل هالة الترحيب و العتاب، انهمرت الدموع من عين سيد عاتبًا على قطيعتهم له، لم يفكر أحدهم أن يباغته بالزياره ليطلب منه العودة بعد انتهاء سنوات الإبعاد، كان عتابه قاسيًا ولكنه انكسر للحنين وطفق يعانقهم، التحم أربعتهم كجسد واحد فى عناق محموم بالعبر والأشواق، وغريب قابع على المقعد يترقب بحسد كونه وحيدا لاأخ له، جاءت أم مجدى مرحبة بهم، فهى أول مرة ترى فيها أخوته، كانت سعيدة بقدومهم وسعيدة لجمع شملهم بعد قطيعة فرضتها الظروف والأعراف القديمة التى اندثرت خلف استنكار الجيل الجديد لها، وهو الجيل الذى نال قسطا من العلم وازدياد رحابة الفكر واكتساب ثقافة الحوار الذى يبنى على الإقناع، دعتهم جميعًا ليروا ماجدا فى غُرفته ويراهم لأول مرة، كان ماجد يتوق لرؤية أعمامه الذى ما تحدث عنهم الوالد أمامه وأمام الأسرة إلا قليلا، فرح ماجد واستقام جالسا على السرير وقد أحاطوه وأمطروه سيلا من عبارات التحفيل بسلامته وتماثله للشفاء وتمني كمال الصحة والعافية له، كانت حميدة قد أعدت الغداء وأومأت لسيد بذلك، نهضوا على إِثر دعوة سيد لهم بالنهوض لتناول الغذاء، تراصوا على منضدة السُفرة بينما حميدة تقف من بعيد مستترة بستارة تؤدى إلى المطبخ لتكون قريبة تُلبى نداء سيد إذا ما احتاجوا شيئًا ما، بينما هم جلوس يتناولون الغداء دخل مجدى وقد علم بقدومهم من خلال اتصال سهام به حيث أنها جاءت لتساعد أم مجدى فى المطبخ لضيق الوقت وقد أسعفتها فى إنجاز وطهو الطعام سريعًا، رحب مجدى بهم دون مصافحة

وجلس معهم على السُفرة، انتهوا من تناول الغداء ودخلت أم مجدى لترفع الأطباق وبقايا الطعام وتنظف السُفرة، بعد أن غسلوا أيديهم من أثار الطعام، كان غريب مازال مُشمرا عن كُم جلبابه ويمسح راحة يده بمنديل يد فلمحت حميدة أثار غُرز الخياطة لجرح قديم، هى ؟!، هى؟!، هى نفس اليد التى كانت ممسكة بالمنديل الذى كممها فى تلك الليلة الليلاء، هى تلك اليد التى بسبب بطشها ظلت فى تأنيب ضمير على ذنب بات يؤرقها فى كل وقت وحين، تلك اليد التى بسببها جاء طفل لولا الرحمة التى زرعها الله فى قلب زوجها لهامت على وجهها توارى فضيحتها وتتخفى من الناس خزيًا وعارا، كان الوالد مشغولا بأشقائه، أما مجدى فكان يراقب أمه، ولما تغير وجهها وهى تنظر إلى ذراع غريب ازداد فضول مجدى وبدأ ينقل نظره مابين غريب وبين أمه، انتبه غريب لحميدة وهى شاخصة ببصرها إلى ذراعه فارتجف غريب وارتعدت فرائسه وقام بمد كُم الجلباب حتى كفة يده، تناولوا الشاى وأستأذن غريب بالانصراف لقضاء بعض مصالح خاصة به، تسرب الشك والريبة داخل مجدى وتيقن أن شيئًا ما اكتشفته أمه فى غريب جعلها تجفل من غريب على غير المتوقع والمعتاد، فقد رآها من قبل ترحب به فى احترام وود تام.

أعطى منصور لسيد باقى ثمن نصف الفدان الذى اتفقا على شرائه، وكان منصور قد أعد العقود وقام سيد بالتوقيع على عقد البيع.

وكما جمع الاشتياق سيد بأشقائه فقد فرق بينهم الاشتياق إلى أبنائهم وأرضهم وذويهم، وعادوا إلى القرية بعد أن أطمأنوا على ماجد ورأوا أخاهم سيد بعد طول غياب.

تعمد مجدى المجىء كثيرا إلى بيت والده بالرغم من تماثل ماجد للشفاء، أراد أن يعرف شيئًا يوصله لإجلاء هذا الاستبهام الذى بات يقضى على سكينته ويزعزع استقراره الداخلى، ولكن لا حديث يدور ولو مبهم يستنتج منه ما يروى ظمأه.

سمع والده يتحدث فى الهاتف وأغلق المحادثة على قوله نلتقى فى المقهى، أيقن مجدى أنه سيقابل غريبا، وبعد وقت قليل من إغلاقه للهاتف أخبر الوالد مجدى أن يصحبه إلى المقهى ليقابل غريبا، قال له مجدى: ولِمَ لا يأتى إلى هنا؟ قال الوالد: هو يريدنى فى المقهى كعادته، إنه يقول بأنه يأخذ حُريته فى الكلام بالمقهى أكثر من هنا، سيد لم يخفِ عليه أن حميدة لمحت ما بذراع غريب من أثار خياطة الجرح القديم، ولكنه ادعى انشغاله مع أشقائه، ولكن كانت زاوية عينيه تعمل فى نشاط ورمقت وراقبت كل شىء، وتيقن أنها علمت الآن من جنى على أجمل ما تحمل المرأة، لقد تأكد أنها رأت آثار الجرح القديم الذى وضح هويته كجانٍ عليها، كم كان يملك سيد من الصبر على ترقب نتائج أحداث الماضى، وكم كان يوبخها وقتما كانت تدافع عن أخيها ماهر فى كل عمل مشين يقوم به، فذاقت هى ماقدمت يدى أخيها ماهر حين كانت تفاخر بقوته وهيمنته على القوى والضعيف فى المنطقة،

كان سيد يثق أنها كانت ممرا الغريب مرر به شعوره بالتشفى والانتقام من ماهر أخيها الذى كسره وأذله أمام مومس. كان سيد يثق فى عدالة الله التى حلت فى حميدة وتعرضها للأذى، وقد كانت تدافع عن أخيها عندما يفعل ذلك الفعل، ولكن كان دفاعا عن جهل حيث لم تكن تدرك الخطأ من الثواب حتى تعلمت مع العِشرة كل شىء من سيد الذى كان ينقل لها مايسمعه فى المسجد أو فى الندوات، علاوة على تتبع أحاديث الدين فى الراديو والتلفاز، فقد اعتادت أن ترهف السمع كما كان يفعل سيد، فبدأت تهذب نفسها وتحدد مكان خطوتها فلا تقول إلا ما يرضى الله ووضعت لنفسها قانونا سارت عليه منذ تلك الفاجعة التى ألمت بها، ولم تنسَ أن سيد أنبها وقرعها لأنها ظلت تدافع عن أخيها وتبرر أفعاله الطائشة، وقد كان رجلا تعدى سن الشباب وأقرانه يمسكون أبناءهم فى أيديهم بالشوارع، وكان يثق أن ماهر سينال عقابه، فظل هائما على وجهه يموج مع الضلاله والسير الخاطىء حتى مات وحيدا محسورًا على حياته التى أفناها فى النزق والطيش، وبدأ غريب فى تسديد ما عليه من حسابات قديمة، أوقعه طمعه فحبس الحق عن أصحابه وظهر بعد حين فى عيون الجميع لصا مُحتالا حتى ولو لم يعلنوها له من دافع القرابة، إلا أنه بالفعل نعتوه فيما بينهم باللص المُحتال، وبالرغم من كل ما فعله غريب مع سيد من مواقف تتصف بالخسة والدناءة إلا أن سيد وجده لا يستحق أن يكون هدفا للانتقام أو أن يلقى نفسه خلف القضبان بسبب جبان ناكر للجميل.

جلس مجدى مع والده فى المقهى فى انتظار مجىء غريب، جاء فتى المقهى فأومأ إليه سيد بالتمهل بعض الوقت فعلم أنهما فى انتظار أحد ما، قال سيد إنه سعيد باستجابة ماجد السريعة للعلاج وقُرب الدخول فى طور النقاهة والتعافى التام، طمأنه مجدى على أن نسبة توافق الأنسجه ممتازة، مجرد كلام يحمل أكثر من هدف، يُقتل به أرق الانتظار او يضاعف درجة اطمئنان الوالد على ابنه ماجد.

جاء غريب وفى يده كيس بلاستيكى قديم متهالك وبه شىء ملفوف فى ورق جرائد، وضع الكيس على المنضدة وصافح سيد ومجدى وجلسوا جميعا، أومأ سيد لفتى المقهى أن يجلب لهم شايا، كان مجدى يتفرس فى وجه غريب، كان يخاف من التواء هذا الرجل وعدم مصداقيته، فتح غريب الكيس فأطلت من الكيس رُزم أوراق مالية، قال: هذا المبلغ هو نصف ما علىَّ لك يا سيد، وبعد شهر سأجمع لك النصف الآخر، لقد حقق غريب أموالا تضاعف ما لسيد لديه من أصل تلك الأموال، وقد شغلها فى تجارة الحبوب والسماد وفى شراكه فلاحين بالمواشى، ولكن سيد قانع بما يصله من مال، ولو كان قد فقد قيمته الحقيقية، لو كان كل جنيه جاءه فى وقته، أخذ سيد المال وأعطاه لمجدى، سيضيف مجدى إلى هذا المبلغ ما أخذه من أشقائه من ثمن الأرض ليكمل المبلغ الذى أخذه من حامد زوج أخته.

رأى مجدى أمه على غير عادتها، حتى عندما جاءت فاطمة لترى أخاها ماجد لم تكن سعيدة به كما فى السابق، شئ ما يُشغل الأم ويؤرقها ويُفسد عليها حياتها، كانت تتذرع بالصداع والمغص إذا ما سألها أحد عما بها.

كان مجدى يشتم رائحة غريب فيما يرى من حال أمه المتغير إلى الأسوأ.

***

-١٦-

عـزم مجـدى أن يذهـب إلى الصعيـد بنـاء عـلى رغبـة والـده، طلـب منه أن يسـجل لهـم الأرض ويـرى الأرض التـى تخصهم، أخـذ أجـازة مـن عمله عـدة أيـام، وصـل لبيـت عمـه منصـور بعـد الغـروب الـذى رآه فى الريـف مُختلفا عـن الغـروب بالمدينة، لم يحجبـه عـن المنظـر الأخـاذ سـور ولا بنـاء، رأى الفضـاء تعرى ليرى محاسـنه التـى يحجبها فى القاهـرة علو البناء ودُخـان المصانع وعـوادم السـيارات، رحـب عمـه منصـور بـه أيـما ترحيـب، لم يسـتقبله فى المنـدرة إنـما أدخلـه البيت حيث زال شـعور اسـتقباله كضيـف، إنـما هو مـن أبنـاء البيـت، بعدمـا تناولوا العشـاء حيث مجـدى قد وصل بـه الجوع منتهـاه فـأكل بشراهة، قاموا وجلسـوا فى المنـدرة حيـث جاء باقـى أعمامه مرحبـين بـه، فى الصباح ذهب إلى الغيـط مع خالد وألقـى نظرة على أرض والده، الفضاء فسـيح والخُضرة تُحاصر مد البصر، وشـجر الصفصاف مـتراص يعانق الـتُرع والقنـوات، واليـمام يحط عـلى كل الاغصـان فى مأمـن تام حيـث انعدمـت هوايـة صيد الطيـور كـما كان فى المـاضى، تجمعوا

فى الغيط على بساط الأرض يتناولون الإفطار، وعلى مقربة منهم تم إشعال النار للشاى، أخبره كارم أن يتناول العشاء معه، ولكن مجدى رفض متذرعا بالعمل الذى سيعود من أجله، انتهوا من الإفطار وتناولوا الشاى ونهض مجدى ليعود حتى يذهب ويسجل لهم الأرض بموجب التوكيل الذى وكله له والده، بعد أن انتهى من تسجيل الأرض لهم أراد أن يعود للقاهرة ولكن عمه منصور رفض وأصر على أن يعود معه ويسافر فى الصباح، ولما رأه مجدى مُصِرا ذكره أن حقيبته التى تركها فى المرة السابقة ما زالت بالبيت، فاضطر مجدى أن ينصاع لطلب عمه حيث إن الحقيبة بها أغلب ملابسه، فى الصباح ركِب السيارة ورفض أن يصاحبه أحد إلى محطة القطار.

أثناء انتظاره لقدوم القطار كان هناك حملة تفتيش مفاجىء، وقف أمامه رقيب شرطة و طلب منه رؤية إثبات تحقيق شخصيته، أبرزها له مجدى، نظر إلى حقيبته وطلب تفتيشها، بلا أدنى امتعاض قدم مجدى له الحقيبه ليقوم بعمله، أخرج منها مُجسما حجريا مشكلا على هيئة جُعران حجمه فى مستوى نصف كفه اليد المتوسطة ومن منظره يبدو أنه أثرى، أستوقفه الرقيب وذهب به إلى مركز الشُرطة، لقد نسى أن يأخذ رقم هاتف أى أحد من أقاربه، وكان ماجد مازال فى طور التعافى، ووالده طاعن فى العُمر لا يقوى على مكابده تلك الأمور، اتصل بزوجته أن تذهب لوالده لتأخذ منه رقم غريب ليتصل

بأحـد فى البلـد ليذهـب إليـه بالمركـز لـيرى مـا التدابـير اللازمـة للخـروج مـن تلك الأزمـة، لقد وضع فى حُسـبانه أن مُسـتقبله فى مهـب الريـح، فـما وقع فيـه الآن هو الضلـوع فى تهريب آثـار، من وضـع لـه ذلـك الأثـر فى حقيبتـه؟ فعمـه منصـور طيـب وخالـد ابـن عمـه منصـور إنسـان سـوى ومُسـتقيم، مـن فعل بـه ذلك؟ لقـد تـم حبـس مجـدى أربعة أيـام عـلى ذمـة التحقيـق، لأنـه قال إنـه وجـده ملقـى عـلى الأرض بينـما هو يسـير فى طريقـه إلى محطة القطـار، لم يعـترف أنـه لا يخصـه فيُدخل عمـه منصـور للمسـاءلة والتفتيـش عـن أثار أخـرى فى بيتـه، أتصل غريـب بمنصور الذى لهـث هو وأشـقاؤه لـيروا ماذا حـدث لـه، أصطحبوا معهـم مُحامٍ، وحِمـد منصـور الله أن مجـدى قـال إنـه وجـده ملقـى فى الطريـقً، وعَـرف أن سـيد نجـح فى أن يزرع الشـهامة والرجولـة فى مجدى، أكـد المحامـى لهـم صعوبة موقفـه، وأنـه سـينال عقوبة قاسـية إذ تبـين أنـه أثـر ذو قيمـة ويسـتحق العقـاب عليـه، فأغلـب القريـة تعـرف أن صاحـب مُجسـم الجُعـران هو غريـب، ولم يتطـرق أحد إلى مجـرد الشـك أنـه أثار، فهو مجرد شـىء تـوارث عـبر الأجيال، علـم والـد مجـدى بما جرى له فخر مغشـيًا عليـه وأصابتـه جلطة خلفـت شـللا نصفيـا وثِقـلا شـديدا فى اللسـان، مكـث أسـبوعا فى الحجـز، زوجـة خالـد أصبحـت مُتهمـة فى وضع هذا المُجسـم فى حقيبـة مجـدى ووثقـوا أن مـن حرضهـا بفعـل ذلـك هـو أبـوه أو أخوهـا الـذى أهـان مجـدى مـن قبـل، ولكنهـا أقسـمت أنها لم تفعـل ذلـك وصدقهـا منصـور لأنـه كان يـرى أنهـا إنسـانة طيبة تختلـف كليًا عـن أبيهـا وعـن أخيها.

عـاد غريـب يلهـث لـيرى مـاذا سيفعل فى تلـك الطامـة التى ألمت بمجـدى وكأنـه لا يعلـم أن ابنه مـن فعل ذلـك، وقد يكون فعـل ذلـك بالاتفاق، حتـى تلك اللحظـة لم يظهر مـن فعل ذلك، هـو لم يكـن يعلـم أن هـذا الجعـران الـذى كان يلعب بـه الأطفال أصبـح الآن مُجسـما لجُعران أثـرى، زار غريب مجـدى فى الحجز ولم يخبره بما حـدث مـع والـده، فقد علـم فقط مـن صاحـب المقهى بشـلل سـيد عندما ذهـب ليقابله.

فى اليـوم التـالى لمجـىء غريب تـم الإفـراج عن مجدى وأشـاع غريـب أنـه مـن أقنـع النيابـة أن هذا المُجسـم عـلى هيئـة الجعران ليـس أثريـا، وهـذا سـبب الإفـراج عـن مجدى، مـع أنـه لم يتـم استـجوابه مـن الأسـاس، لم يعلـم غريـب أن النيابـة وضحـت لمجـدى سـبب خروجـه حيـث إن خبـير بهيئـة الأثـار تفحصـه فوجـد الجُعـران أثرا مقلـدا كان مـن صُنـع عامة الشـعب آنذاك، لذلـك لا يدخـل فى زُمـرة الآثـار ذات القيمـة ولا ثمـن لـه الآن، ابتسـم مجدى وقـال: كان ملـكا لأحـد عامـة الشـعب!

خـرج مجدى وهـو لا يعلـم من فعـل به ذلـك، وأصبـح عمه منصـور فى قمـة الإحـراج من نفسـه ومن مجـدى ولا يعـرف ماذا يقـول لـه، طفـق منصور يقبـل رأس مجدى لأنه لم يزج باسـمه فى التحقيـق عندمـا قـال إنـه وجـده فى الطريـق فالتقطـه ووضعه فى الحقيبـة فقـط، فقـد كان منصـور سـيتهم أنـه يسـتحوذ عـلى آثـار أخـرى قبـل أن يكتشـفوا زيـف المُجسـم، كان حجمـه أصغر من نصـف كـف اليد، هـل يخبرهـم منصور أن هـذا الجُعـران صاحبه

غريـب؟ أم مـاذا يقـول له ومن وضعـه له؟ كان يثـق أن من وضع لـه الجُعـران فى حقيبتـه كان يقصـد لـه الأذى، وقـد تـم تدبير كل شـىء ليتـم توقيفه.

عـاد إلى القاهـرة وقـد عانى الأمريـن من فرط عجـزه فى تحمْل أيـام الحجـز، فلـم يعتـد عـلى الحبسـه أو القيـد، ولم يكـن يتوقـع ذلـك لعـدم ضلوعـه فى أمـر مخالف يتوقـع منـه العقاب.

لم يكـن يعلـم ماجـرى لوالده بعـد، تفاجأ حينما وجـده ملازما الفـراش فى وضـح النهـار، وعندمـا دخل البيـت عند والـده كان آوان صـلاة العـصر، ومع ذلـك وجده نائـما، قبـل أن يدخل عليه أخبرتـه أمـه بـما ألم بوالده عـلى بعـد سـماعه بتوقيفه بسـبب قضية الآثـار المزعومـة، دخـل الغُرفـة عـلى والـده وقـد وجده مسـجى عـلى الفِـراش، قبـل رأس والـده وقبـل يـده وجلس بجـواره على حافـة السريـر، حـدث والده بـما جرى لـه، وقال لـه: إن ما جرى لـه كان مـن ترتيـب القـدر، وإلا مـا علمـت قـدر حُبـك لى، أوما والـده بالتأمـين عـلى كلامـه وضحـك الوالـد وشـفتاه ملتويتـان بعض الشـىء نحـو زاويـة فمه.

عندمـا عـاد مجـدى لبيتـه أرادت سـهام أن توضـح لمجـدى أن كل نتائـج تدخلـه فى مشـاكل لعائلتـه لا تأتـى لـه إلا بـالأذى الـذى يطالـه هـو فقـط دون غـيره، ولكنه نهرهـا وامتقـع وجهه، وقـال لهـا: لا تتدخـل بينـى وبين أهلى. قـال فى حـزم وصرامة: لا أسـمح لـك أن تتحدثـى عـن أهـلى إلا بـما يرضينى.

لم تنبس سهام ببنت شفة لأنها وضعت نفسها موضع غير لائق بها، فمجدى كان يرى أنها النموذج الأحق بالتقدير لسِعة صدرها فى تحملها معه المشاق التى واجهها، وكانت تعينه بالصبر وتُحثه على الجَلد، حسم مجدى معها أمر أهله، وقدعَرفت الحدود التى يجب أن تقف عندها، فلا تناقشه فى شىء قد فعله لمَ فعلت ولمَ لم تفعل.

***

-١٧-

فى البلـد بالصعيـد مكـث منصـور فترة وهـو يشـتاط غضبًا لما حـدث لمجـدى، لم يغفـر لنفسـه وهـو يشـعر أنـه السـبب فى عين مجـدى بسـبب مـا جـرى لـه، فالحقيبـة خارجة مـن بيته.

ذات مسـاء جمـع مـن بالبيـت وأغلق البـاب الخارجـى، وقف خالـد وأشـقاؤه جمالا وحشـمتا ويوسـف ووقفت زوجـة خالد ممسـكة فى يدهـا أبناءها وهـم يرتجفون مـن منظر جدهـم منصور وهـو غاضب.

قـال بصـوت جهور: مـن وضـع الجُعـران فى حقيبـة مجدى؟! كـرر خطابـه لهم مرات ومـرات حتى كاد أن تواتيه حالة هسـتيرية لـولا السُـعال الـذى فاجـأه فخـر جالسـا فأحاطـوه ولكنـه هـم واقفـا وأبعـد أيديهـم عـن ملامسـة جسـمه وقـال: أنا بخـير. ثم عـاد يقول: مـن وضـع الجُعـران فى حقيبـة مجدى؟!

فى هالة غضبه أجاب على سؤاله ابن خالد قائلًا:

- أنا ياجدى.

تفجأت أم الطفل لأنها ابنة غريب والجميع يعلم أن هذا الجعران ملك لغريب، نظر خالد إلى زوجته نظرة اتهام، وكذلك منصور باغتها بتلك النظرة الحادة، قال له جده: من أين جئت به؟ قال وليد وهو طفل لا يعرِف الكذب وعيناه تتنقل بين أبيه خالد وبين أمه: إن خاله حاتم أعطاه له وقد وضعه له فى تجويف دبدوب كان يلعب به، قال: ضعه فى وسط حقيبة مجدى، وقال للطفل إنه سيفرح به وسيكون مفاجأة أكثر لو وجده دون أن يعلم من وضعه له، أخبره ألا يحدث أحدا بذلك.

كان غريب مازال بالقاهرة، داخل منصور شعور مركب فقد فرِح لان الفاعل لم يكن أحد أبنائه، وحزن لأن حاتم قد ورث من والده غريب صفات الخيانة والندالة بهذا العمل المُشين .

***

-١٨-

فى المساء جلس مجدى وماجد مع والدهما فى غرفته، كان قد بدأ يتقبل الطعام بعدما كان يعافه ويعيش على القليل منه وعلى العصائر، كان مجدى يحمله ويذهب به إلى الحمام لقضاء حاجته، وبدأ يشعر بتحسن وشيئًا فشيئًا بدأ التنميل الذى يشعر به يزول ولكن لا يقوى على السير بعد، الطبيب حثه عدم استعجال السير على قدمه وقال له إن ما به شلل وقتى لا ولن يستمر.

ماجد عاد لطبيعته وزالت عنه أى آلام كان يشعر بها، وعاد لعمله فى الصيدلية بعدما مل من طول فترة النوم بعد الجراحة، أما مجدى فقد اعتاد العودة إلى بيت والده بشكل يومى قبل أن يصعد إلى شقته، وإذا تأخر مجدى فكانت تنزل سهام لتجلس معهم حين تشعر بملل المكوث بمفردها وهى تنتظره.

عند الأصيل جاء غريب فى زيارة محتومة وثقيلة عليه لابد من أدائها وسيد حبيس شلله، عندما فتحت حميدة الباب

وجدتـه، لم ترحـب بـه إنـما أشـارت لـه إلى غرفة سـيد التـى يرقد فيهـا، جلبـت لـه عصـيرا معلبـا اسـتخسرت أن تُجهد نفسـها من أجـل هـذا الكائـن الخائـن، مكث غريـب مع سـيد قُرابة السـاعة وهـو يتحـدث وسـيد ينظـر إليـه ويـرد عليـه بالإيـماء، ثـم هـم بالخـروج وربـت عـلى منكـب سـيد وتمنـى لـه الشـفاء العاجـل وخـرج. كانـت حميـده فى انتظـاره وهـى مشـحونة بالغضـب والضيـق والاحتقـار، أطـرق برأسـه متوجهـا صـوب البـاب لتتلاشـى نظراتهـا خيفـة أن تسـتوقفه ولكنهـا باغتتـه قائلـة: ماذا فعلـت بـك حتـى تفعـل بـى مافعلـت؟!

كان البـاب الخارجى مواربـا لأنه عندما طـرق الباب ووجدته هـو دخلـت وتركته وأشـارت لـه إلى الغرفة التى يجلس فيها سـيد وهـو لم يغْلـق الباب جيدا، وسـمع مجـدى تكرارها للمـرة الثالثة: مـاذا فعلت بـك لتفعل بى مـا فعلت؟!

أراد أن يتملـص فأمسـكت ذراعـه بغضـب وعنف وشـمرت كُـم جلبابـه وقالت:

– لم أر منـك إلا هـذا الجـزء مـن ذراعـك، ولكنـه ظـل محفورا فى ذهنـى وخيـالى وأنـا أقـاوم فيـك وانت ممسـك بالمنديـل الذى وضعتـه عـلى فمـى وأنفى حتـى فقـدت الوعى.

أطرق برأسـه لأسـفل وهـو لا يجد جوابـا، وقـف كتلميذ بليد لا يـكاد يفقـه قـولا، ثـم انسـحب مخزيًـا منكـس الـرأس. شـعر مجـدى بخروجـه فجرى وصعـد الـدرج فى خِفة، لقـد فِرح مجدى

أيهما فرحة، لم يكن يريد أن يعرف من والده البيولوجى؟ ولكنه فرح أن أمه ليست عاهِرا، وأن ما حدث لها كان عن رفض ومقاومة، ولولا أنها فقدت الوعى ما حدث لها شىء.

لم يتفاجأ أن غريب هو ذلك الفاعل الماجن الذى كان يظن أنه سيظل المجهول الذى لعب بالجميع، ولكن مجدى كان يظن أن والده لا يعلم أن غريب هو ذاك المجهول الذى نغص عليه وعلى أمه حياتهما قرابة ثلاثة عقود، لم يأسف مجدى على فقدان غريب كأب لأن تلك الصفة لا تتماشى مع الغدر والخيانة والسفه، وكل تلك الصفات تلازم غريبا ولا تفارقه طرفة عين،، خرج غريب وهبط مجدى ودخل، كان الباب مفتوح أيضا فلم يغلق غريب الباب خلفه ولم تهتم هى بخروجه حتى تُعلق الباب خلفه، السعادة تكاد تقفز من وجه مجدى، دخل وقبَّل رأس أمه.

كان يعتذر لها دون أن تعلم كل الظنون السيئة التى كانت تخالجه نحوها، طلب منها أى طعام فهو يشعر بالجوع، دخل لوالده الذى بدأ يُحرك قدمه وذرعه وبدأ لسانه ينطلق بالكلام بعد أن كان ثقيلا، وبعد عشرة أيام عاد الوالد يمشى وبيده عصا ليستند عليها خشية السقوط، وباشر جلسات العلاج الطبيعى حتى عاد يشعر بتحسُن بعض الشىء وبدأ يمشى بلا عصا أو عُكاز.

كان أول همْ مجدى الذى كان يقلقه هو صحة والده، بعد أن اطمأن مجدى على تماثل والده للشفاء، بدأ آليًا يواتيه

التفكير والتنقيب مع نفسه فيمن فعل به ذلك؟ من الذى أراد أن يزج به فى غيابات السجن؟ ودس له فى حقيبته ما يُدينه ويجعله عُرضه للمساءلة القانونية، لم يعرف مجدى أى شىء مما دار فى البلد حتى الآن، بعد ظهور الحقيقة على لسان طفل لايعرف للكذب طريقا بعد، حاول مجدى إيجاد آلية يتعامل بها مع غريب حيث إنه يراه إنسانا مخادعا وغير سوى، حتى بعد أن عرف ما عرف إلا أنه مازال يحتقره، ولا ولن يغفر له كل ما فعله بوالده الشرعى وكل ما فعله بأمه والذُل الذى عانت منه على مر السنين بسبب فعلته القذرة.

بيد أن سيد لم يقص على مجدى عداء غريب القديم له منذ أن كانا شبابا فى البلد حيث إن غريب كان يحسد سيد على قوته، وكان غريم سيد إلا أن سيد فاز بمن يتصارعان عليها، وقد شمِت غريب وتشفى فى سيد عندما ماتت زوجته الأولى قبل أن يغادر البلد مطرودًا، ومن قبل رفَض سيد أن يتزوج أخت غريب وفضل عليها فتاة أخرى، وكان لسيد جولات متعددة مع غريب ولصالح غريب حيث دافع عنه أكثر من مرة عندما كان يتعرض للضرب مِمَّن هم أنداده فى العمر، وذلك عندما كانا صغارا على أبواب الشباب، فقد كان سيد قويا بشجاعة، وكان غريب خبيثا بجُبن ونذالة، ولكن ظل غريب يحمل لسيد بُغضا دفينا، فلا يُظهر له إلا الابتسامة الصفراء ولكن داخله مقت متناهٍ ومع ذلك كان يخشى جانبه.

كان مجدى يتمنى عدم معرفة غريب بانتمائه له كابن من صُلبه، فقد قرأ مجدى أنه لا ينسب لغريب لأنه ابن... بينما ينسب لسيد طالما كان زوجا أمه، وقد اعترفت بالذنب أنه كان عنوة أو خطيئة أعقبتها توبت نصوحة، لذلك كان مجدى يرتاح من هذا الجانب، فكل ما كان يشغله هو كون أمه كانت عاهرا آنذاك؟ أم حدث ذلك معها عنوة؟ وجالت أمامه حالة أمه التى كان يتمناها، لقد أحب مجدى سيد كوالد وفاخر به نفسه أنه ينتسب إليه، أصبح لا يفرق معه غريب فى شىء، فهو يراه رجلا عاديا من معارف والده أو أقاربه، وعزم إذا تقابل معه سيعامله كذلك دون زيادة أو نُقصان.

وما زال الوالد حتى الآن يجهل أن مجدى مُلِما بكل الحقيقة التى يعتقد هو وأم مجدى أنه لا يعرِف عن سرهما شيئا.

مرت أيام ورن هاتف مجدى، وجد اسم غريب؛ فقد احتفظ به منذ أزمة الجُعران، طلب من مجدى مقابلته على المقهى، أعطاه مجدى موعدا قبل الغروب بعد عودته من عمله، بعد أن رحب به كما هو المُعتاد سأله عن والده، طمأنه مجدى أنه الآن أصبح طبيعيا ويمشى على قدميه بدون عصا أو عُكاز، كان فى يده كيس متهالك وكأنه نفس كيس المرة السابقة الذى كان يضع فيه المال المستحق عليه، والذى احتجزه عنده سنين، أخرج بالفعل باقى المبلغ المُستحق عليه، كان غريب يبغض مجدى، فلولا ذهابه للبلد بالصعيد ما عرِف أحد شيئا عن تلك الأموال التى بنت ثروته الحالية وهو ينميها تدريجيا

مـع مالـه الأصلى الـذى يملِكـه حتى تضاعفـت مـرات ومرات، كان غريـب يعـرف أن مجدى قـد علـم أن الجعران ملـك له وكان فى بيتـه قـد ورثـه مـن والـده الـذى ورثه من جـده، لذلك سـارع بقضـاء المبلـغ المسـتحق عليـه حتـى يتلاشـى مُقابلـة مجـدى مـرة أخـرى، ويقطع علاقته بسـيد قدر المُسـتطاع بسـبب كشـف حميدة لجريمتـه ظنًـا منـه أن سـيد لا يعلـم عـن ذلك شـيئا وأنهـا أخفت عنـه ماحـدث لهـا، بعـد أن أخذ مجـدى المبلـغ، جاء صبـى المقهى بالشـاى، تعلـل غريـب بعـدم مقدرتـه المكـوث أكثـر مـن ذلك، ولكـن مجـدى طلب منـه التمهـل لأن عنده أمـرا يريـد أن يعرضه عليـه، جلـس غريـب مـرة أخـرى وأومـأ لمجـدى أنه يسـتمع له، قـال مجـدى: أنـت تعـرف أن الجُعران ملـك لك.

قـال غريـب: ملكـى ولكـن لا أعلـم مـن سرقـه ونقلـه لبيت عمـك منصـور وقتئذ.

لم يعلـم أن حفيـده اعـترف بتحريـض حاتـم ابن غريـب له أن يفعـل ذلك، قـال مجدى مطمئنـه إنه لا يقصـد اتهاما، إنـما قال له: أريـدك أن تبادلنـا بيتـك وتأخذ بـدلا منه فدانا مـن أرض والدى، قـال غريـب بامتعـاض بيتـى ليـس للمقايضـة، قـال مجـدى: إن فـدان أرض يـوازى قيمـة أربعـة بيـوت مـن بيتـك وأنـت تملـك أكثـر مـن بيـت غيره. بيـت هنـا وبيتـان فى البلد، ربـط غريـب بين سـؤال مجـدى عـن ملكيتـه للجعـران وبـين عـرض المقايضة على البيـت مقابـل فـدان مـن الأرض، وهب واقفـا وقال:

- ولو كانت الثلاثة أفدنة مقابل البيت لن أوافق.

لقد تأكد غريب أن مجدى واثق أن بيته يحوى آثارا، لذلك يريد أن يشتريه بأى سعر، ظن أن مجدى عرض الأثر على خبير أو متخصص ممن يبحثون عن الآثار، انصرف غريب وتملؤه المفاجأة والدهش والسعادة؛ فبيته يقبع على كنز كبير، لاحت على خاطره طموحات وآمال الغنى الفاحش الذى كان يحلم به، تراصت فى مخيلته قائمة الاحتياجات التى ظل يحلم بها، وستحقق لها المكانة المرموقة التى يحلم بها بين أعيان القرية.

***

-١٩-

دعا منصور كل رجال العائلة ليجتمعوا فى المندرة، كان غريب فى هذا الجمع ولكنه لا يعرف سبب الاجتماع، بعد أن كَمُل عدد رجال العائلة قام منصور وقص عليهم ما حدث من حاتم ابن غريب، والأذى الذى سببه لمجدى ابن أخيه، استنكر الجميع هذا الصنيع، ثم ذكرهم بما حدث لأخيه سيد منذ زمن عندما حكموا عليه بالإبعاد من البلد، بالرغم من أنه لم يفعل شيئا يضر أحدا إلا أنه لم يقل إلا الحقيقة، نعم قال الحقيقة وكلكم يعلم ذلك ولكننا كنا نخشى مجرد الكلام عندما كنا صغارا حتى لا يغضب الكبار الذين كنا نخشى غضبهم .

كان ينظر إلى أبناء عمه، ثم صمت هنيهه وقال:

– أنا لى حق عند حاتم ابن غريب لأنه لم يحترم حرمة بيتى وأرسل طفلا لا يعِى نتيجة مافعله ليضع شيئا مشبوها فى حقيبة ضيفى الذى نعتبره غريبا، ناهيك عن كونه ابن أخى

ولكنـه ضيـف، ومجـدى ابـن أخـى الـذى تعـرض لـلأذى وتـم حجـزه تحـت التحقيق للتأكـد من ثبوت مـا يحملـه إن كان أثرا أم حجـرا، مُشـكل عـادى لا قيمة لـه، أريد حقى وأريـد حق ضيفى وليـس حـق ابـن أخـى، أم أنهـم أرادوا أن يكتشـف مجـدى ما تم إخفـاؤه قبـل أن يسـافر إذا مـا فتح الحقيبـة، هل كنتـم تريدون أن يتهمنـى ابـن أخـى أنـى أمكر لـه مكر السـوء.

قال «علم» وهو أحد أبناء عم الحج منصور:

- يـترك البلد خمسـة مـع أنه يعلـم أن الإبعـاد قد تـم إلغاؤه فى العائلـة منـذ فترة ليسـت بالقليلة.

وقال «على «من أبناء العائلة ونِد منصور فى العُمر:

- يدفع تعويضا ماليا.

قال غريب مفزوعًا: تعويض لا !، لا أملك شيئا.

قـال آخـر: الطيـب أحسـن، و يعتـذر حاتـم لمجـدى ويقبـل رأسـه أمـام جميـع العائلـة

قال غريب بلهفة من وجد ضالته:

- يعتـذرا يعتـذرا وانـا أعتـذر معـه لمجـدىا ولمنصـورا ولكـم جميعًـا.

وقال متملقًا:

- ابنى اخطأ ولكن لا أملك غيره.

مُلمحًا إلى أنهم جميعا معهم أكثر من ولد، مما جعل أكثرهم يغمغم ويتلو: «قل أعوذ برب الفلق».

منصور يثق أن غريبا أملس كالصابون، سيستمر فى المداهنة حتى يصل لأسهل الحلول التى لا تُكلفه جنيهًا واحدًا، حاتم جلس مسمرا مكانه يتمنى أن تبتلعه الأرض بينما والده الذى يدافع عنه باستماتة، فهو لا يملك ردودا مُقنعة عن الهدف الذى دفعه لفعله ذلك فى مجدى.

منصور لم يكتفِ بكل تلك العقوبات التى يقترحونها، بينما هُم فى انتظار قدوم مجدى ليعرضوا عليه اعتذار حاتم، وقد رأوا منصور متشبثا بعقاب يناسب الفعل ووجدهم يتساءلون فيما بينهم عن موعد قدوم مجدى، فقال منصور:

- لو تنازل مجدى لن أتنازل أنا.

جاء مجدى ورحب به الجميع مهنئين وسعداء، فمنهم من رآه من قبل ومنهم من لم يره، كان يعانقه لأنه من قلب العائلة وابن سيد الذى كان من خيرة شباب العائلة قبل أن يترك القرية مُعاقبا بالإبعاد.

نظر الجميع إلى حاتم بنيما مجدى ذهب ليندس بجوار عمه منصور، قام حاتم واتجه إلى مجدى واعتذر له وطلب منه السماح على ما اقترفه فى حقه، قام مجدى ورفع رأس حاتم الذى كان يطرقه لأسفل وقال له:

- أنـت ابـن عمـى ومثـل أخـى ولا تُطأطـىء رأسـك أبـدا، ارفـع رأسـك فكلنـا معرضـون للخطـأ والصـواب.

وتعانقـا فذرفـت عـين حاتم الدمـوع مـدرارا، أراد منصور أن يـترك الجمع ويخـرج فأمسـك بيده مجـدى وقال:

- وأنت يا عم لابد أن تسامحه.

قال منصور:

- ولن أثنى لك أول طلب تطلبه منى.

فربت منصور على منكب حاتم وقال له:

- ادخـل سـاعد خالـد فى إحضـار الشـاى وإشـعال الفحـم وجلـب الشـيش للرجـال.

انـصرف الجميع مـن المنـدرة وبقى منصـور وغريـب، وحاتم عانـق مجـدى قبـل أن ينـصرف، أمـا غريب فقـال لمجدى:

- شاور والدك لو أراد أن يبيع أرضه أنا جاهز بالثمن.

أومـأ منصـور لمجـدى أن يوافـق لأن منصـور يعـى أن غريب لايملـك شـيئا فى الوقت الحـالى إلا إذا باع المواشـى والبيت الذى لايسـكن فيـه ويبيـع كل المواشـى التـى يشـارك عليهـا فى القرية، وهـذا كلـه لا يكفـى ثمـن نصـف الأرض، ومنصـور يعـرف أن كل السـيولة النقديـة التـى كانـت معه، سـدد بها مـا كان عليه من مـال محجـوز لديـه لصالـح سـيد، فقال لـه مجدى:

- ولـو لم يكـن معـك مـا يكفـى نأخـذ البيـت الـذى تقطنـه وتنقـل عائليتـك وعـزال البيـت فى البيـت الآخـر.

قال منصور:

البيت ثمنه لا يشترى ستة قراريط.

قال مجدى:

- أنـا أتعهـد أن أبادلـه وأعطيه فدانـا ومعى توكيـل عام يخول لى التـصرف فى كل ما يملكـه والدى.

نهض غريب من مقعده وقال:

- أنت بيتى فى دماغك، لا أعرف لمَ بيتى بالذات؟!

نظـر منصـور إلى مجدى ورد نظـره إلى غريب متعجبـا أن حوار المقايضـة حـوار قديـم بينهـم، انـصرف غريـب وهـو ينتفض من فـرط سـعادته؛ فكلـما تشـبث مجـدى بـشراء البيـت زادت قيمـة البيـت، وزاد تشـبث غريـب بـه، الآن وثـق غريـب أن مجـدى متأكـد أن البيـت بـه آثـار أو كنز، ربما قابـل خبير الآثـار وانبأه، أو ربـما علـم أن البيـت يحتـوى على كنـز مـن أحد مـا كأبيـه، أو ربما وصـف شـكل الجُعـران والرسـومات التـى عليه تخبر بشـئ ما لا يعلمـه هـو. احتـمالات لا حـصر لهـا تراصـت فى خلـد غريب.

***

-٢٠-

ذهب غريب عند الأصيل إلى الحقل، أراد أن ينفرد بابنه حاتم حتى يقنعه بما ينوى فعله، كان لحاتم كلمته المسموعة والمُجابة، وكان رأيه أيضا يُعمل به فى البيت، قال له أن مجدى يعرض عليه فدانا من أرض والده مقابل أن يأخذ البيت مارأيك؟ بلا أخذ وقت فى التفكير، قال إنه يتمنى أن تتم تلك المبادلة، ولما رأى غريب عدم تمسك ابنه بالبيت، قال: ولمَ نرضى بفدان إذا كنا نستطيع أن نشترى منه عشرة أفدنة وأكثر دون أن نبيعه؟!، تعجب حاتم وسأل عن كيفية ذلك، قال غريب: إن بيتنا به كنز أثرى لابد أن نبحث عنه، لو لم يكن كذلك لما أراد ابن حميدة أن يدفع في ثمنه فدان أرض، سأل حاتم: ابن حميده؟!، قال غريب: أقصد مجدى، فغضب حاتم وقال: إنه ابن عمى فلا تكرر قول ابن حميدة مرة أخرى، تضرج وجه غريب خجلا لقوله ذلك بعدما قرعه حاتم، ولما وجد حاتم أن والده يتكلم بملء فمه عن الكنز أو الآثار قال:

- وأين نسكن؟

قال غريب:

- فى البيت الثانى، لو فتحنا بابا فى الحائط سيكونان بيتا واحدا، ولكن لن نفتح أبوابا من أجل الغرباء الذين سيبحثون لنا عن الكنز.

قال حاتم:

- يحتاج البحث إلى تلال من المال، يحتاج أموالا كثيرة.

قال غريب بفخار بعد أن وضع يده على رقبته:

- أبوك سداد.

قام غريب بإخلاء البيت ونقل كل شىء فى البيت من أثاث وغلال، ونقل كل محتويات البيت إلى البيت الآخر، وبدأ غريب يعس فى كل مكان ليجد أحد المتمكنين فى عمليات البحث حتى دله أحد العطارين على رجل مشهور وأعطاه العنوان الذى ينزل به فى أحد البيوت المتحولة إلى بسيون متواضع، قال له العطار:

- إذا طلب منك بخورا ثمنه آلاف الجنيهات لا تتعامل معه أنا لا يوجد عندى أى بخور إلا البخور العادى ثمن الكيلو لايتعدى المئتى جنيه حتى لا يُخيل لك أنى شريك له إنما أنا فقط سمعت عنه ولا أعرف إن كان يعرف فى استخراج الكنوز أم أنه نصاب؟!

ثم قال العطار له :

أنصحك ألا تنجرف فى هذا الطريق لأنه سيُخسرك الكثير من المال وقد تجد وقد لاتجد.

أخذ غريب العنوان وامتعض من نصيحة العطار المُثبِطة لهمته فى حلم الوصول لحلم الثراء، ثم قال له العطار:

- اذهب إليه بعد يومين، هو غير موجود الآن لأنه فى عمل تنقيب عن آثار بمكان آخر.

انتظر غريب ثلاثة أيام وذهب إلى القاهرة، وصل إلى البنسيون الذى دله عليه العطار، كان الرجل فى غرفته، ولكنه كان يعطى تعليمات للشاب القابع على مكتب استقبال متواضع، أن يقول لمن يسأل عنه إنه سيعود بعد ثلاث أو أربع ساعات من عمله، ليوهم من يسأل عنه أنه يعمل ومنشغل ليجذب إليه من يسأل عنه، فيتشبث به، فلو عاد مرة أخرى لعرف أن هذا السائل يحتاج إليه حاجة شديدة، فيُعمل بعد ذلك حيله وطرقه فى ابتزازه وسلب ما يشاء منه من مال خلف حلم وحاجة السائل فى الحصول على الكنز المزعوم، سأل الرجل عن اسم قرية غريب فأعطاه إياه، دخل الرجل بعد ذلك إلى الحمام متعللا بالضرورة له، فتح خريطة جوجل وبحث عن القرية، فى بعض الأحيان عندما تصل إلى القرية التى تبحث عنها فى الخريطة ثم تقوم بتكبير الخريطة وتكبر الصوره عند المكان الذى تبحث عنه يعطى بعض أسماء

أصحـاب البيـوت، لم يظهـر اسـم غريـب ولكـن الرجـل حفـظ بعـض الأسـماء ليوهـم غريـب أنـه يتحـدث بعلـم، فطفـق يقول لغريـب: عندكـم بيـت محمـد أبوالحسـن، اقشـعر جسـد غريـب وقـال: نعم عندنا محمد ابوالحسـن، قال الشـيخ: عنده آثـار لكنها بعيدة لأسـفل ومن الصعب اسـتخراجها وحراس الكنز أشـداء، كان غريبـا قـد أعطـى الرجل اسـمه الرباعـى، ثم قال لـه غريب:

- من فى البلد لديه كنز آخر؟

كان الرجـل يغمـض عينيـه ويدعـى أنـه يتصـل بعـالم الجـن والأرواح الذيـن يعطونـه إجابـة أى سـؤال، كان عـلى الخريطـة اسـم كارم ابـن عمـه، وبيـت كارم ليس بعيـد عـن بيتـه، فعرف الرجـل أن بيـت كارم قريـب مـن بيـت غريـب نظرا لاشـتراكهم فى أسـماء الجـدود، وعـادة مـا تقطـن العائـلات فى مـكان واحد، قـال الرجل:

- بيت كارم ابو هريدى قريب منه كنز ولكن ليس فى بيت كارم.

هنـا قفـز مستوى الثقـة لـدى غريـب وعلـم أن هـذا الرجـل مكشـوف عنـه الحجـاب، فقـال غريـب: هـو هـذا الكنـز الـذى أحدثـك عنـه.

انتشـى الرجـل لنجـاح تخطيطه، وتفتحـت أبـواب الأمل أمام غريـب، جـاء غريـب بالرجـل مدعيـا أنـه مقاول بنـاء سـيبنى له البيـت إذا مـا رآه أحـد، جاءا بالليـل، وجاب الرجـل جميع أرجاء البيت، قـال الرجـل لغريب:

أحتاج رجال للحفر أم أجلب أنا رجال معى؟

قال غريب:

- أنا سأعطيك ماتحتاجه وأجلب من تشاء ولكن يأتون بالليل ولا يخرجون وإن ذهبوا يذهبون بالليل، لاأريد أن يعلم أحد ماذا نفعل.

قال الرجل لغريب:

سنحفر هنا، وأشار إلى موضع وكان يثق من علمه بما يبطن هذا المكان فى جوفه، طاوع غريب الرجل وطفق الرجل يعرض على غريب طلباته وغريب يقول: لا، لاتسمِ لى شيئا، بل قل كم تريد وانت تصرف كما تراه صالحا فى إتمامَ ما نريد، ولكن بسرعة، طلب الرجل مبلغا كبيرا، كاد نبض غريب أن يتوقف، ولكن الرجل طفق يعد لغريب المقتنيات التى يحويها تجويف بيته من تماثيل ذهب وسبائك ذهب خام، حتى أن الرجل قال لغريب: فى مقدورى أن أجلب لك من يشترى بيتك بمليون جنيه وهو يبحث ويستخرج هذا الكنز ثم يترك لك بيتك هدية بعد استخراج الكنز ودون أن يدرى أحد.

قال الرجل لغريب:

- إن الكنز ليس ببعيد وعمقه لا يتعدى العشرين مترا.

امتلأ داخل غريب ثقة أنه على بُعد أيام من تحقيق احلامه، على بُعد أيام ويشترى ما يحلم به منذ شبابه، يشترى

مهره ويمتطيها ويخطر بها فى الشارع أمام بيت منصور وكارم وأدهم، على بُعد أيام ويشترى أرضا كثيرا تفوق فى اتساعها أرض العُمدة وشيخ البلد، طلب من الرجل أن يبدأ العمل ويمهله أياما حتى يقضى له ما يشاء، رفض الرجل وقال:

عندما تدبر أتعابى ستجدنى فى نفس المكان، فقد أجد لك الكنز وعندما أطالبك بأتعابى تقوم بقتلى وردم الحفر على جثتى ولن يشعر بك أحد.

ذهب الرجل وترك غريب يبحث عن طريقه لجمع ما يريده الرجل من مال، طاف فى القريه ليُنبه على كل الفلاحين الذين يشاركهم مواشيهم أنه يريد أن يبيعها ويأخذ حقه ويفض الشراكة، كانوا كثيرين وبالفعل بعد عشرة أيام جمع فيها المبلغ المالى الذى طلبه الرجل، ذهب إلى الرجل فى البنسيون، كان الرجل قد أوصى الشاب القابع على مكتب الاستقبال أن يقول لمن يسال عنه إنه نائم بسبب عودته من العمل مُتعبا.

هو يعلم أن السائل سيطلب منه أن يوقظه له وهكذا بالفعل، رجا غريب الشاب أن يذهب ويوقظ له الرجل، نزل الرجل إلى منتصف السلم ونادى على غريب ليلحق به إلى غرفته، أخذ الرجل المال من غريب وطلب منه رش البيت كله بالماء والملح، ثم طلب منه رش عدس مسلوق أيضا بعد رش الماء والملح، إنها اصول الحبكة التى توهم غريب بتصديقه، أعطى الرجل غريب مبلغا من المال وطلب منه شراء أدوات حفر جديدة وحادة ويذهب ويحدها شفرتها، وطلب منه أن

يذهب إلى العطار ويشترى منه بخورا عاديا رخيصا وزئبق أحمر وماء ورد، زادت ثقة غريب بالرجل فتركه على أن يلتقيا فى الغد بعد المغرب ليبدأوا الحفر، جاء الغد ولم يأتِ الرجل، انتظر غريب حتى الصباح فأسرع بالسفر إلى الرجل فلم يجده فى البنسيون، قال الشاب عامل الاستقبال: إنه أخذ حقيبته وذهب مع أشخاص اصطحبوه فى سيارة وكانوا على عجله من أمرهم حتى أنه ترك باقى الفكة المتبقية له من حسابه.

طفق غريب يلطم على وجهه وقد دفعه طمعه إلى فقد مواشيه التى كانت تُدر له ثمارها كل عام دون جهد منه أو كد، فسأل الشاب: ومتى سيعود؟ قال الشاب: إنه ليس من زبائن البنسيون الدائمين، فطفق غريب يعض على يديه ولطم خده تعبيرًا عن غيظه وكيده وفاجعته، ثم غمغم قائلا:

- إنه العطار الكلب.

فاتخذ طريقه إلى العطار وجعله أول وجهته عندما ينزل من القطار، كان فى مدينة المركز التى ينتمى إليه، وجد شخصا آخر يقف فى العِطارة، سأل عن الرجل، ولكن صاحب العطاره نفى معرفته، ولما أعطى غريب أوصاف الرجل الذى قابله منذ بضعة أيام، قال العطار: إنه عمل معه فقط بائعا بأجر يومى ولما وجدته يخبىء مالا من مبيعات العطارة وهو منصرف من العمل فقمت بطرده.

فامتلأ غريب غيظأ وفقد الأمل فى استرداد ما فقده من مال، وكان هم غريب الأول كيف سيواجه ابنه حاتم الذى نهاه عن فعل ذلك فى البدايه، أيقن غريب أن هذا التدبير كان من تدبير مجدى، ولكن استبعد ذلك فمجدى لا يعرف العطار الذى دله على الرجل ولا يعرف الرجل، ولكنه وضع نصب عينيه أن تلك الخسارة هى انتقام مجدى منه على حجب أموال والده على مدار قرابه عقدين، وتلك المواشى جميعا من أموال سيد التى حجبها عن سيد ولم يسلمها له فى موعدها واحتفظ بها غريب دون علم سيد حتى فقدت الفلوس قيمتها، بيد أن غريبا لا يعلم أيضًا أن مجدى يعلم شيئا عما فعله بأمه، ولا يعلم أنه والد مجدى البيولوجى. الآن أصبح غريب لا يملك إلا بعض القراريط المتبقية مما تركه له والده بعد أن باع أغلب أرضه فى الكذب والتعالى والعيش برغد مقلدًا كبار القرية، وبيته الآخر كان لأخته، لها أكثر من نصفه لأنها لم تأخذ إرثها فى البيت الذى يقطن فيه، بيد أنه هضم حقها فى الأرض وكان يعطيها مبلغا زهيدا لا يناهز خُمس حقها فى كل مرة يبيع فيها أرضا مقابل توقيعها، أما بيت القاهرة فهو الذى يملكه فقط وهو ذو قيمة قد تجلب له المال ولا يساوى الكثير لأن مساحته صغيرة جدًا.

علم مجدى بما حدث لغريب من خسارته لمبلغ كبير من المال على يد مُحتال، ووثق أن غريب لعبت به أحلام الثراء على بعد إغرائه له أن يبادله البيت مقابل فدان، كان مجدى

يتمنى أن يبدأ غريب رحلة البحث عن الكنز المزعوم حتى ينفد ما معه حتى آخر جنيه، ولكنه وجد مُحتالا أخذ ما جمعه وهرب دون أن يتفنن فى استنزافه كما كان يتمنى مجدى، ومع ذلك تنفس مجدى الصعداء بالرغم من تحذير والده له ألا يشمت فى أحد، إلا أن الارتياح النفسى تسرب إليه لأن الهم والحُزن سيلازمانه فترة من الزمن أسفًا على ما قد فقد وهو الذى أذى وأصاب غيره بالهم عمرًا كاملًا دون أن تنتابه لحظة ندم.

***

-٢١-

عـادت سـهام زوجـة مجـدى تشـكو اهمالـه لهـا بالنسـبه لكثرة تفاعلـه مـع مشـاركه أهلـه مشـاكلهم وهمومهـم، وكـم مـن مره حذرهـا أنـه لـن ينسـلخ مـن أهلـه إرضـاءً لهـا، وكان فى تلـك المواجهة فى أسـلوبه معهـا يغلب عليه طابع القسـوة والامتعاض، بـل هددهـا بنهايـة حياتهـما معًـا إذا مـا عـاودت التذمـر بالرغـم مـن اقـتراب ولادتهـا لاول مولـود لهـما، عرضـت عليـه أن يقـوم باسـتئجار شـقة فى مـكان آخـر بعيـدًا عـن والـده، إنهـا تقـول له إنهـا تفتقـده طـوال الوقـت، بـل تفتقـده وهـو بجوارهـا حيـث يكـون معهـا بجسـده ولكـن عقلـه مـع والـده تـارة ومـع ماجـد وحالتـه الصحيـه تـارة أخـرى وأمـه والعائلـه التـى تجـدد ودهـا وزادت مـن أخـذ مسـاحة مـن تفكـيره، هـى لاتعـرف شـيئا ممـا يؤرقـه أو يجـول فى خاطـره.

شـعرت سـهام أنهـا لاتمثـل له شـيئا، تمردت عـلى حياتهـا التى تشـعر فيهـا بفقدانهـا للسـعاده التـى كانت تنشـدها قبـل الزواج، وجـد مجـدى نفسـه مضغوطـا ولا يجـد ردا مناسـبا ينفـس عنـه

الغيـظ والكيـد الـذى جلبته لـه سـهام، فتركها وانـصرف وخرج لا يـدرى أيـن تذهـب به قدمـاه حتى وجد نفسـه ذاهبـا إلى حيث يجلـس والـده بالمقهـى، أخـبره والـده عـن الرجـل الـذى احتـال عـلى غريـب وسـلبه مبلغا ماليـا كبـيرا و... ابتسـم مجدى وسـأل والده:

- هل أنت سعيد بخسارته لذلك المال؟

قال له والده: لم اعتد أن أشمت فى أحد.

قـال له مجـدى: ولكنـى سـعيد ومنتشٍ كـم أكره هـذا الرجل، سـيد يعتقـد أن مجـدى لا يعلم شـيئا مما يعلمـه، ومجـدى يعتقد أن والـده سـيد لايعلـم شـيئا عـن هـذا الرجـل ممـا يعرفـه هـو، قال الوالد:

أنـا الآن قلـق عليـك يامجـدى، أجعـل بـاب التسـامح مواربـا واتـرك «الله الصبـور» يأتـى لـك بحقـك.

قـال مجـدى: ومـا رأيـك فيمـن اعتـدى عـلى زوجـة صديقـه الذى أعانه وسـاعده فى شراء بيت وكان يبعد عنه أذى الأشرار؟!

تضرج وجه سيد وقال: من تقصد؟ قال مجدى:

- أقصـد مـا حـدث مـع أمـى قبـل مولـدى بتسـعة أشـهر، سـمعتكم منـذ فترة وعلمـت كل شـىء، علمت من أنـا وعلمت مـن الفاعـل وسـأخبرك مـن هـو لأنـك لا تعرفـه.

قام سيد وأخذ مجدى فى يده حتى لا يعلم أحد عما يتحدثان، قد كان المقهى خاليا ولا يدرى قد يجلس بجوارهم أحد ولا يشعران به وهما سكرى تحت تأثير هذا الكلام الآخذ للذهن والروح معًا، جلسا على الطوار تحت شجرة.

قال سيد: من تقصد؟!

قال مجدى: من فعل ذلك بأمى هو غريب.

- من أخبرك.

قال: وقت مرضك جاء غريب لزيارتك وعند خروجه دخلت فاستوقفنى تأنيب أمى له على ما فعله بها، وقالت له إنها عرفته بذلك الجرح وأثار الخياطه الباقى، قال:

- لقد سعدت عندما تأكدت أن الأمر حدث غصبًا عنها، بل وهى تحت تأثير البنج الذى وضعه لها تحت تأثير نفسه التى سولت له خيانتك.

وضع سيد رأسه بين كفيه وصمت هنيهة وقال:

- عرفت من هو منذ أن قالت لى أمك ما حدث لها، بل وذلك الجرح أنا من ذهبت به إلى المستشفى الأميرى وهو متكىء علىَّ ولم أتركه حتى أعدته إلى فِراشه؛ حيث كان وحيدًا لأمه و أبيه، عرفته منذ وصفت لى أمك ما حدث لها والذراع الذى قاومته ومنظره الذى وصفته محفور فى ذهنى طوال تلك السنين كما هو محفور فى خيال أمك، كلما همس لى الماضى

بذكرياتـه المطمـورة بـين طياتـه كان يراودنى الانتقـام، كنت أخمد همـس الماضى بالصبـر والترقب لقـدرة الله وعدله، أمـك لم تره إلا عندمـا زارنـا أعمامـك وهذا مـا لاحظته.

قال مجدى: ولم لم تقتله وقد... ؟!

قـال: هـو فى خيالـه لم يعتـدى عـلى زوجتـى، إنـما انتقـم مـن خالـك ماهـر فى أختـه.

قال مجدى: خالى ماهر؟!

قال سـيد: نعـم يا بُنـى، خالك ماهر الـذى تنازع معـه فى بيت راقصـة وتقاتـلا مـن أجلهـا، وكانـت الغلبـة لماهر وضربـه ضربا مبرحـا حتـى أنـه مكـث أيامـا لا يخرج مـن بيتـه، ثم أننـى تركت البلـد مـن أجـل كُرهى للـدم والقتـل هل آتـى هنا لأقتـل؟! كان هنـاك حلـول بـدلا مـن القتـل، فقـد حاولـت كـما قلت أنـت أن أقتلـه ولكـن لم أسـتطع، ليـس عجـزا أو ضعفـا، ولكـن داخـلى يكـره القتـل، تركـت الأمـر لله ولكن كنت عاقـدا النية لـو كررها فهـو قتيلى.

قـال مجـدى: وكيف رضيـت أن تظل مـع أمى وقـد حملت من غـيرك؟! ضحك سـيد وقـال: ومـا ذنبهـا؟! وقد حـدث معها ما حـدث وهـى نائمة تحت تأثـير البنـج؟ ماذا أنـت فاعل بنفسـك إذا وجـدت نفسـك فى غرفـة مومـس عندما اسـتقظت مـن النوم ولا تعـرف من جـاء بـك إلى هنا؟!

صمت مجدى صمت اقتناع وعض على شفته:

وأنت؟!، ما ذنبك فى أن تشغل نفسك كل هذا العمر؟!

قال سيد: فى اللحظة التى اعترفت لى فيها أمك، كان بالنسبة لى دليل عفتها وطهارتها، كان بالنسبة لى دليل صدقها مع نفسها واحترامها لى حيث لم تخدعنى وكان فى مقدورها أن تُنكر ما حدث لها، وقتها لم أكن قد اقتربت منها منذ شهر بسبب سفرى لظروف العمل وقبل السفر كنت قد تركتها حائضا، وبعدما علمت ما حدث عن طريقها بعُدت عنها طوال شهرين لم ألمسها حتى تأكدت من حملها، فصُمت عنها حتى وضعتك.

أنت صرت ابنى الشرعى ما دامت قد اعترفت بما حدث لو كانت قاصدة الفحش وتابت، فالخالق يقبل التوبة فمن أنا حتى يرفضها، قد أكون من القِلة القليلة التى ترضى بذلك، ولكنها هى لم تزنى وما حدث لها خارج وعيها وإرادتها فقد حدث معها ذلك وهى مغلوب على أمرها بل فى غير وعيها التام، كلنا لآدم، وتركك أو التخلى عنك ليس من الرحمه أو النخوة أو الإنسانية فى شىء، وأنت فيما بعد أصبحت أخا لأولادى فوجودك معنا لم يمثل لى أى ضرر لأن محارمى صارت محارمك، وكان وجهك سعيدا على وقد عينونى رئيس عمال وكنت لم أتجاوز الثلاثين من عمرى بعد، وزاد راتبى وكانت بركة الله تلفعنا وحفظه لاحدود له، وعندما كبرت واشتد عودك أنت من لهث خلف فاطمة وأخرجها من محنتها، وقد

دافعت أنت عنها، وقد كانت متورطة فى قضية آداب رغم براءتها إلا أن الصُدفة أوجدتها فى مكان الفحش وقت قدوم شرطة الآداب، ومن الذى أخذ من ماله المدخر لزواجه ليتمم زواج أخته أولا غيرك أنت؟ ومن الذى اجتهد خلف ماجد وهو مريض ومن الذى دبر لها المتبرع بالكلية ومن الذى قضى المال له من حامد سواك، ومحنة مرضى وشللى من الذى عالنى فى تلك المحنة غيرك؟!

إن كنت قد ضحيت من أجلك مرة فأنت ضحيت من أجل الجميع مرات، ومن الذى أعاد ودى بعائلتى غيرك، وأنت الذى أعاد لى مالى المسلوب وأنت من بين لى حقى فى أرضى التى كانت بحوزة أشقائى وكانت دافعا لهم ليكفوا عن وصالى أو حتى السؤال عنى.

وقال سيد: مجدى، أنت ابنى.

نظر إليه مجدى فى حنو وقال: وانت والدى.

تناول يد والده وطفق يقبلها، وضع سيد يده على رأس مجدى وترجلا إلى البيت، كان يتوقع أن يجد الشقه خالية من سهام، فقد أغضبها وظن أنها قد ذهبت إلى بيت أبيها، ولكنه وجدها تُعد العشاء فى المطبخ، هم ليساعدها، امتلات اساريرها فرحًا وحبورا، فتلك أول مرة يساعدها فى المطبخ منذ زواجهما، فاجأها ألم وتوقعت أنه وجع الولادة، أطفأ نار الموقد وذهب بها إلى الفِراش، ركض وعاد معه طبيبة عيادتها

قريبـة مـن البيـت، طلبـت منـه الطبيبـة اسـتدعاء أمـه أو أحـد قريباتـه لتسـخن مـاء، سـتقوم الطبيبـة بتوليدهـا فى الفـراش فقد مر وقـت الـولاده.

هبـط الدرج واسـتدعى أمـه، واتصلت الطبيبـة بالممرضة التى معهـا لتأتـى لهـا ببعـض الأشـياء الخاصـة بالتوليـد مـن عيادتهـا، وقامـت الطبيبـة بتوليدهـا وكان المولـود ولـدا، سَـعِد سـيد كثيرا وجـاء ماجـد وعلمـت أم سـهام ووالدها فجـاءا لاهثـين والتقطا أنفاسـهما عندمـا وجدوهـا قـد وضعـت الجنـين، اجتمعـوا عـلى اسـم سـيد وهو اسـم الوالد الـذى كان يحملـه و يحوطـه بذراعيه ويهدهـده وهـو ابن سـويعات.

علـم سـيد أن حاتم ابـن غريب قد تـوفى فى حادث سـير، وأن غريـب فى حاله سـيئة، علم سـيد مـن غريب عبر الهاتـف وطلب من سـيد العفـو، إلا أن سـيد قال له:

- المـال لا يعنـى لى شـيئا وأنـا سـامحتك حتـى قبـل أن تـرد ما حجزتـه عنـى منذ سـنين.

طلب سـيد من مجـدى أن يذهـب لأداء واجب العـزاء، ولكن مجـدى حـاول إقنـاع والـده أن يذهـب معـه إلا أن سـيد قـال: كلامـى لا رجعـة فيـه فـلا تحدثنـى عـن العـودة للبلـد البتة.

قـال الوالـد: أدعو الله أن يجعـل موتى فى المكان الذى وجدت فيـه راحتى فى الدنيا، وأشـار إلى الأرض بسـبابته وقـال: هُنا، قبل أن يذهـب نـادى سـيد عليـه وأعطـاه مبلغـا مـن المـال وقـال له:

قـل لعمـك غريـب إن هـذا المبلغ مرسـله لـك والدى، سـيأخذه منـك!، اعـرف أنـه لـن يرفضـه، فحالتـه المادية الآن مـن سـىء لأسـوأ، أخـذ مجـدى المـال ووضعـه فى جيبه، قـال له والـده: أين حقيبتك .

قال مجدى مبتسمًا ومتذكرًا ماحدث له بسبب الحقيبة:

- لـن آخـذ معى أية حقائـب لأنى لـن أمكث إلا ليلـة واحدة أقـوم فيهـا بالعـزاء وسـأعود فى الصبـاح، فسـيد الصغـير قـد أوحشـنى قبـل أن أتركـه.

غـاب مجـدى عـن والـده الـذى قـد رآه لا يهتـم لأمـر غريب، وقـد علـم مـا علـم، وها هـو الآن قـد فقـد ابنـه الوحيد.

غمغم الوالد قائلا: اللهم لا شماتة.

ثم صمت هنيهة وقال: سبحان الله الصبور.

انتهى

***

عن المؤلف

محمد عبدالحميد على سليمان

ت: واتساب٠٠٩٧١٥٢١١٦٣٦٥٤

بريد الكترونى: gmail.com@mh٢٣٨٩١٧٠

السن: ٤٧.

المؤهل: دبلوم تجارة

الوظيفه: أعمال حرة.

الاعمال السابقة: رواية كبرياء وحنين. تحت الطبع.

***